الطريق إلى نوبل ١٩٨٨

عبر حارة نجيب محفوظ

د. محمد يحيى

معتز شكرى

أُمَّـــة بْرِس للطباعة والنشر

﴿ إهـــــداء ﴾

** إلى كل مـوحّد ..

في وجه كل إباحيٍّ ومُلْحد :

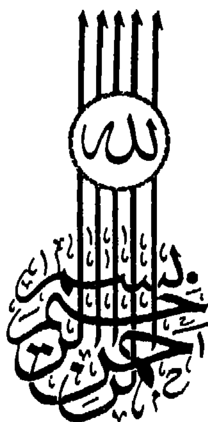
{ قُلِ: اللَّه، ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُون }

الطبعة الأولى
١٤٠٩ هـ ـ ١٩٨٩ م

أُمَّـــة بْرِس للطباعة والنشر

٢٤ شـارع دجلة ـ متفـرع من شـهاب ـ المهندسـين
الدور الرابـع ـ شـقة ٩ ـ تليفـون : ٧٠٨٥٥٦

الرواية والمؤلف


بسم الله الرحمن الرحيم

بين يدي الكتاب

لعل رواية في الأدب العربي المعاصر - على كثرة الروايات التي أثارت ضجيجاً - لم يكن لها من الصدى والضجيج ما كان لرواية (أولاد حارتنا) للأستاذ نجيب محفوظ. فقد اجتمعت عوامل عدة لكي تدفع بها إلى الصدارة على قائمة الكتب التي تثير اللغط والنزاع وردود الفعل العنيفة..

فأولاً: هي قصة رمزية لاتختفي فيها الرموز إلا خلف غلالة رقيقة من الواقع الإجتماعي.. والرموز لها خطورتها لأنها تتعرض لأفكار دينية.. ويتمثل فيها أشخاص الأنبياء من آدم إلى محمد عليهم الصلاة والسلام.. ولله تعالى نفسه شخص يمثّله في الرواية!

وثانياً: هي قصة تصوّر الله والأنبياء والرسالات السماوية على غير الحقيقة الإيمانية وغير ما يؤمن به الناس في هذا البلد الذي صدرت فيه القصة.. وترسي القصة مبادئ الإشتراكية العلمية والماركسية الملحدة بديلاً للدين والألوهية والوحي.. وتبشّر بوراثة العلم الدنيوي المادي للدين الذي ترى أنه أستنفد أغراضه ووهنت قواه!

وثالثاً: هي قصة لم تجد طريقها للنشر إلا عبر أحداث كبيرة وتصرفات خطيرة وردود أفعال عنيفة تستحق كلها أن تُسجَّل وتروى.. فقد بدأ نشرها مسلسلة في الأهرام سنة ١٩٥٩.. فما لبثت أن أثارت الأزهر الذي احتجّ عليها.. فكان أن تصدى رئيس تحرير الأهرام آنذاك

الأستاذ محمد حسنين هيكل لهذا الإحتجاج.. وشجع الأستاذ نجيب محفوظ علي الإستمرار في نشرها (على أن يمارس دور الرقيب على نفسه ويحذف بعض الفقرات).

واستمر نشر الرواية في ظل هذه الأجواء غير العادية: الإحتجاج.. والحذف، ثم لم تصدر الرواية مكتملة في كتاب في مصر، ولكنها صدرت في بيروت عن دار الآداب سنة ١٩٦٧ وقيل إن الناشر حذف أيضاً بعض الفقرات،

ثم ترجمت إلى الإنجليزية وصدرت سنة ١٩٨١ عن دار هاينمان وقال المترجم (فيليب استيوارت) في مقدمته - وكذلك الناشر على الغلاف - إنها أكمل طبعة لهذه الرواية.

ورابعاً: هي قصة اهتم بها دارسو الأدب العربي من الأجانب والمستشرقين اهتماماً خاصاً، وأفردوا لها جانباً بارزاً من دراساتهم عن أدب نجيب محفوظ، لدرجة أنه لم تكد تخلو ترجمة لإحدى رواياته إلى الإنجليزيه من حديث عن (أولاد حارتنا) في المقدمة ومناقشة لقضاياها الفلسفية (الجريئة) التي أثارتها.

وخامساً: هي القصة التي كانت على رأس حيثيات منح صاحبها جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٨٨، باعتبارها (رواية غير عادية) وجاء ذكرها صراحةً كذلك في الخطاب الذي ألقاه سكرتير لجنة الجائزة في حفل التسليم باستوكهولم، حيث أشار - في غضون إطرائه على الرواية - إلى ما تضمنته من مفهوم (موت الإله)! وكأن اللجنة بذلك قد ألقت بحجر ضخم في المياه الراكدة «والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها»!

وسادساً: هي القصة التي أثارت – من جديد وبعد حوالي ٢٩ عاماً – المزيد من اللغط والضجيج.. بين مؤيد يطالب بنشر الرواية المصادرة ويرى أن منعها بعد حصول كاتبها على جائزة نوبل عار ما بعده عار.. ومعارض يطالب – ليس فقط باستمرار مصادرتها – بل وبأن يتبرأ كاتبها منها لما فيها من أفكار ملحدة هدامة!

وقد رأينا أن للقارىء غير المتخصص حق تعريفه بالرواية قبل أن نقدم له تحليلاً أدبياً وفلسفياً ودينياً لها من وجهة نظرنا، فقمنا بعرض أحداث الرواية وتلخيصها لأنها غير متاحة للقارىء في الأسواق ووضعنا يد القارىء على معاني الرموز ودلالات الأحداث.. وهي حقنا في الدراسة التي نضيفها إلى ما كُتب عن الرواية، وهو كثير. وقد اعتمدنا في العرض والتحليل – بالدرجة الأولى – على النص كما تقدمه الترجمة الإنجليزية لأنها أكمل الطبعات.

ولا يفوتنا كذلك ونحن نقدّم بين يدي الرواية – وبغير تزيّد على ما أوردناه بعد ذلك في ثنايا الدراسة – أن نمهّد تمهيداً فلسفياً مختصراً لأهم أفكار القصة وهي فكرة (موت الإله) وكذلك للبدايات الفلسفية للأديب نجيب محفوظ والتي كان لها أكبر الأثر فيما يبدع من قصص وروايات.

أثر سلامه موسى.. والإشتراكية العلمية

يقول الأستاذ نجيب رداً على سؤال: «هل كان لسلامة موسى أثر قوى في تكوينك الفكري كما يذهب بعض الباحثين؟»:

- نعم، كان لسلامه موسى أثر قوي في تفكيري، فقد وجهني إلى شيئين مهمين هما العلم والإشتراكية، ومنذ دخلا مخي لم يخرجا منه إلى الآن.. وكان الأديب الوحيد الذي قبل أن يقرأ رواياتي الأولى وهي مخطوطة، قرأ ثلاث روايات وقال لي إن عندي استعداداً ولكن الروايات غير صالحة للنشر، ثم قرأ الرواية الرابعة وكانت (عبث الأقدار) وأعجبته ونشرها كاملة في (المجلة الجديدة) كما قرأ أول أقاصيص كتبتها ونشر بعضها في (الرواية) و (مجلتي)(١) .

إذن فقد تأثر نجيب منذ بداياته الأولى كأديب بسلامه موسى المفكر.. ومنذ دخل عقله (الإشتراكية والعلم) أو بعبارة أخرى (الإشتراكية العلمية) أو (الماركسية العلمانية) لم يخرجا منه حتى الآن..

فـــكرة « اللّـــه »

فماذا كان الأستاذ الذي تأثر به التلميذ..؟ ..كان ملحداً وعلمانياً لاتلين له قناة.. وكان من أوائل ما نشره كتاب بعنوان: «نشوء فكرة اللّه»

---

(١) فؤاد دوارة «عشرة أدباء يتحدثون» الطبعة الثانية - بدون تاريخ - دار الفكر - ص٤٥٥، ص٤٥٦.

سنة ١٩١٢(٢) !

وليس إذن من قبيل الصدفة أن يكون من بين أوائل ما كتب التلميذ النجيب المخلص لفكر سلامه موسى والمتأثر به «بحث من عدة مقالات عن فكرة «الله» وتطورها»(٣) .

التلاعب بالألفاظ.. وحقيقة المعاني

وسلامة موسى هو «الأستاذ الذي وضع في فكر نجيب محفوظ قيمة العلم».. ومع ذلك «فقد سها عن ذكر سلامة موسى صاحب الأثر البالغ في فكره»(٤) عندما ذكر العقاد وطه حسين وتوفيق الحكيم لحظة إعلان فوزه بالجائزة. وألفاظ «العلم» و «الإشتراكية العلمية» – وهي أسماء فخمة تُخفي الدلالة الإلحادية الوثيقة بها – تذكرنا بما قاله الميثاق الوطني الذي صدر في مصر في نفس أجواء المد العلماني التي صدرت في ظلها أولاد حارتنا. يقول الميثاق(٥) :

«حرية العقيدة الدينية يجب أن تكون لها قداستها في حياتنا الجديدة،

---

(٢) موسوعة الهلال الإشتراكية (عدد من المحررين) الطبعة الأولى – ١٩٧٠ – دار الهلال – ص٤٨٤.

(٣) فؤاد دوارة – المرجع السابق ص٤٦٠.

(٤) محمد روميش «مع نجيب محفوظ» – مقالة بمجلة الهلال – ص٦٥٥ – عدد نوفمبر ١٩٨٨.

(٥) الإقتباس من كتاب د/ إبراهيم دسوقي أباظة (تقدميون إلى الخلف) اقرأ العدد ٤١١– ١٩٧٦ – دار المعارف – القاهرة ص ١٣٩.

ولكن علينا أن نكشف حقيقة الدين وتجلية جوهر رسالته. وإن رسالة السماء كلها كانت ثورات وإن من واجب المفكرين الإحتفاظ للدين بجوهر رسالته على أساس الإقتناع الحر».

إن عبارة «الإقتناع الحر» هي كذلك خادعة، ذلك أننا إذا عرفنا أن الدين الرسمي للدولة السوفيتية والحزب الشيوعي السوفيتي هو [الإلحاد العلمي] وأن **الإلحاد العلمي** يعني في دائرة المعارف السوفيتية **«الإقناع الحر» (!)** لتبينا بوضوح وجلاء مدى الصلة الوثيقة بين «الإشتراكية العلمية» وميثاق «الإشتراكية العربية».

محمد.. خرافة رجل لم يكن

وليس هذا الذي قلناه بعيد الصلة عن حديثنا عن (أولاد حارتنا)، لأن الذي نريد توضيحه هو أن الذي أملاها فكر اشتراكي علمي، والإشتراكية العلمية هي الماركسية الملحدة، ويصبح هذا الكلام مفهوماً عندما نعلم أن من مؤلفات كبار الماركسيين السوفييت كتباً لها عناوين مثل: **«محمد خرافة رجل لم يكن»** و **«رجعية الإسلام»**(٦) ، وأنه استناداً إلى هذه المصادر السوفيتية جاء أول تفسير مادي للتاريخ الإسلامي فوُصفت هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة بأنها تمت نتيجة التجانس العقائدي مع جموع البروليتاريا من يهود يثرب!

---

(٦) د/ إبراهيم دسوقي أباظه «تقدميون إلى الخلف» مرجع سابق ص ١٤٠.

وغير سلامه موسى، نذكر ما جاء في نص حيثيات منح جائزة نوبل لنجيب محفوظ من أنه تأثر بالمفكرين الغربيين مثل ماركس وداروين وفرويد[٧] .

وسيدرك قاريء هذا الكتاب عندما نقدم له خلاصة الرواية وتحليل أحداثها كيف يسير فكر كاتبها في نفس ذلك الإتجاه: التفسير المادي.. لا لتاريخ الإسلام فحسب.. بل لتاريخ الرسالات السماوية كلها.

الفلسفة.. وراء الروايـــة

ويُسأل الأستاذ نجيب محفوظ عن رواية (أولاد حارتنا) من حيث تأثير الأفكار الفلسفية عليها، فيقول[٨] :

«من الممكن اعتبارها رواية تقوم على أساس فكرة فلسفية، والذين رأوا فيها هذا يقولون إنها محاولة لإقامة الإشتراكية والعلم على أساس لايخلو من صوفية وأعترف لك أن هذه الفكرة لم تخطر ببالي بمثل هذا الوضوح أثناء كتابتي للرواية..».

وقول الأستاذ نجيب «من الممكن اعتبارها..» ليس بذي بال لأن جميع الباحثين الذين تعرضوا لها بالتحليل والنقد والمناقشة - سواء من الشرق أو من الغرب، عرباً كانوا أم أجانب - أجمعوا على أنه لايمكن إلا أن تعتبر قائمة على أساس فكرة فلسفية.

(٧) مجلة القاهرة - العدد ٩٠ - ١٥ ديسمبر ١٩٨٨ - ص٦٤.

(٨) فؤاد دواره - المرجع السابق ص ٤٦٥.

الأيديولوجية.. التي «في القلب» !

أما قوله: «لم تخطر ببالي بمثل هذا الوضوح» فيمكن فهمه على ضوء تصريح له في البرنامج الثاني بإذاعة القاهرة أثناء مناقشة نقدية لروايته «قلب الليل» منذ سنوات، حيث قال مامعناه «إن الأيديولوجية في قلبي وليست في عقلي»، وإذن فليس ثمة فارق له قيمة ما دامت هذه الأيديولوجية – التي هي في سويداء القلب – تنضح على ما يضع الكاتب على الورق سواءً كان واعياً بذلك لحظة الكتابة كل الوعي أو بعض الوعي أو حتى لم يكن واعياً تماماً.. فالمحصلة واحدة أو هكذا نرى.

وأما قوله «.. لايخلو من صوفية» فليس بمستغرب إذا علمنا أن من بين مصطلحات الفلسفة هناك «الصوفية الملحدة» أو «الإلحاد الصوفي»!!

وهنا يجمل بنا استعراض أهم ما قاله النقاد بشأن الأفكار الفلسفية التي تنضح بها (أولاد حارتنا).

مقتطفات من آراء الدارسين

في أولاد حارتنا

ظهرت تحولات نجيب محفوظ الفكرية وتجدده العقلي على أعماله في كل مرحلة.. ومن هذه المراحل المرحلة الفلسفية التي عنى فيها بمناقشة **قضايا كونية شاملة**، مثل قضية الوجود أو المصير الإنساني، والبحث عن اليقين المفقود، إلخ.. ومرت هذه المرحلة برواية شديدة الضخامة نشرت بجريدة الأهرام مسلسلة في نهاية عام ١٩٥٩، ولم يشأ لها الحظ الصدور في مصر بعد ذلك، وكانت بعنوان «أولاد حارتنا».

وقد أراد الكاتب إعادة **تشييد العالم ببناء يوتوبيا خاصة على أرض الحارة** التي ابتكرها، وهي حارة مصرية تعيش على حافة المدينة – القاهرة – تحفها الصحراء، حارة عمها الظلم والعسف نيتجة ممارسات الفتوات على أبناء الحارة من الكادحين والغلابة. يتتبع الكاتب تاريخ الحارة، وكأنه يتتبع **تاريخ البشرية** منذ خلقها الله، فالجبلاوي هو سيد الحارة وصاحبها وسكانها هم ذريته التي تسلسلت منذ أنشأ قصره الكبير في نهاية الحارة.

والجبلاوي قابع في القصر يتابع مايجري من ظلم وعذاب لأبنائه دون أن يفعل شيئاً، حتي يخرج من ذريته من يحاول إقامة العدل والإصلاح أمثال «جبل، ثم يليه «رفاعه»، ثم يليه «قاسم» وهم **الذين يمثلون الأديان الثلاثةالكبرى اليهودية والمسيحية والإسلام**.

ويستمر ما أقاموه من قيم العدل لفترة معينة.. بعدها سرعان ما يعود الظلم.. و«أولاد حارتنا» تبشر في جزئها الأخير بعنوان «عرفة» بالعلم.. حيث إن عصر العلم والإخترعات الجديدة يمكن أن يحل مشكلة أولاد الجبلاوي، وكان عرفه الذي يرمز للمعرفة، هو **المخلص للحارة** من كل ما لم تنجح المبادى السابقة في تحقيقه.. فالعلم لابد أن يشمل كل شيء. وهو ما دعا إليه نجيب محفوظ عندما حاول بناء الكون على أرض الحارة، أو حاكي بناء الكون وتتبع تطوره منذ **عصر الأسطورة** حتى عصر العلم.

حل المؤلف في (أولاد حارتنا) رؤيته العلمية في الجزء المسمى «عرفة» الذي **استقدمه الكاتب ليكون خليفة للأنبياء العظام**، مما يصبح على حد قول د/ جورج طرابيش: «**العلم هو دين العصور الحديثة**»، **وهي المقولة التي تبناها نجيب محفوظ** من خلال العلاقات الدرامية والأبنية الفنية التي قدمها في أولاد حارتنا.

ويرى جورج طرابيش أن الأمتداد الموضوعي لأولاد حارتنا كانت القصة الرائعة «حكاية بلا بداية ولا نهاية».. فالأنبياء فيها ثلاثة كما في أولاد حارتنا، ولكنهم ليسوا أنبياء الكتب المقدسة، بل **أنبياء عصر العلم** خلفاء عرفة، وقد أتوا في قصة نجيب محفوظ بعد أن ارتدوا ملابس الصوفية بينما هم يمثلون فكر كل من **كوبرنيكس، وداروين، وفرويد.**

إن عملين من أعمال نجيب محفوظ كانا **مستنداً للجنة نوبل** عند إختيارها للأديب عند منحه جائزتها عن عام ١٩٨٨ **وهما أولاد حارتنا**

وثرثرة فوق النيل

{ بتصرف من مقال: **«الله في رحلة نجيب محفوظ الرمزية»**
كتاب: د/ جورج طرابيشي - عرض: شمس الدين موسى
- مجلة القاهرة العدد ٩٠ - ١٥ ديسمبر ٨٨ ص ١٠٢ -
١٠٤}

ما تكاد تمضي سنتان على انتهاء نشر الثلاثية في عام ١٩٥٧ حتى تبتديء جريدة «الأهرام» سنة ١٩٥٩ نشر رواية جديدة لكاتبنا هي «أولاد حارتنا» **المكتوبة بطريقة تختلف تماماً** أو تكاد عن أسلوبه السابق، اتسعت فيها حدود الزمن إلا مالا نهاية من **الماضي الأسطوري** إلى المستقبل البعيد كل البعد.

ومع أن المكان الذى تتطور فيه الأحداث ضيق جداً وهو «حارتنا» وبعض الحارات المجاورة وأن جبل المقطم كان هو المنفى البعيد لأبطال الرواية، فرغم ذلك تتسع المسافات الروائية لتشمل أراض الشرق الأوسط برمته، هذا الشرق الذي هو **مهد أديان التوحيد الثلاثة.**

أما أبطال الرواية فهم ليسوا بالأناس العاديين، بل إنهم **أصحاب الرسالة الموحى بها** ولعل **مصدر الوحى جدهم الجبلاوى** أو هو **نفوسهم المملوءة بعذاب البشر.**

وهم مناضلون فى سبيل إقامة العدل بين أهل الحارة ومن أجل الرخاء والسعادة».

[عن: مقال «**سرجاذبية أدب نجيب محفوظ**» للمستشرقة السوفيتية فاليراكو ستشانكو - الهلال - عدد نوفمبر ٨٨ - ص١١٨ - ص١١٩]

(تجسدت قيمة العلم فى شخصية «عرفة» فى رواية «أولاد حارتنا» وقد رأى فيه نجيب محفوظ **آخر الأنبياء**، ورأى فى عرفة، واسمه كما هو واضح من المعرفة أى العلم، مستقبل البشرية).

[عن مقال «**مع نجيب محفوظ**» لمحمد روميش - الهلال - نوفمبر٨٨ - ص١٥٦]

(وإذا كانت الجائزة تمنح للكاتب كعمل تقديرى على عطائه الإبداعى طيلة حياته، فإنه فى الغالب يتم التركيز على **عمل واحد** من بين أعماله وذلك من خلال صياغة الديباجة السنوية التى يتلوها ممثل الأكاديمية أمام رجال الإعلام، وهى ديباجة متكررة المعانى.. تكشف عن مدى الهدف الإنسانى والأخلاقى الذى تلعبه الأكاديمية...

إلا أنه عادةً مايتم منح الجائزة للكاتب فيما يتعلق بعمل إبداعي معين، مع التركيز على **أهمية ما يمثله هذا العمل وسط عطائه الآخر**، مثلما فعلت الأكاديمية حين أشارت إلى أن نجيب محفوظ قد **مُنح الجائزة على روايته «أولاد حارتنا»**، مع الإشارة إلى الثلاثية و«ثرثرة فوق النيل»...

[عن: مقال «**نجيب محفوظ والفكر الإنساني في القرن العشرين**» لمحمود قاسم ـ الهلال ـ نوفمبر ٨٨ ـ ص٦٦]

(وقد انقطع صمت نجيب محفوظ فقط سنة ١٩٥٩ بنشر «أولاد حارتنا» وهي رواية رمزية تقدم أساسًا **رؤية متشائمة** لكفاح الانسان من أجل وجوده.

وقد برهنت معالجته للموضوع على أنها **لاتروق للمؤسسة الدينية في مصر**، وشعر أن أفضل نصيحة له هي أن يمتنع عن نشرها في كتاب داخل مصر، بالرغم من أنها منذ ذلك الحين أصبحت متاحة لدى ناشر لبناني. وبسبب مالاقاه هذا العمل من ردود **فعل متباينة** فقد ثبطت همته ولم ينشر أي أعمال أخرى لمدة عدة سنوات، وقصته المنشوره سنة ١٩٦٢ «اللص والكلاب» **تتناول بطريق حذر** موضوعًا **أقل تعقيداً وأقل إثارللنزاع**).

[عن مقدمة المترجم تريفور لى جاسيك **للترجمة الإنجليزيةلزقاق المدق** - هاينمان - ١٩٧٥ - لندن]

(كان محفوظ قد سبق له في سنة ١٩٥٩ أن جلب على نفسه **غضب جامعة الأزهر -معقل التقليدية الإسلامية-** وذلك بروايته **الرمزية الإجتماعية والدينية** «أولاد حارتنا» التى **يمثل فيها أحد الشخصيات «الله»**، بينما **يظهر فيها أيضًا «موسى» و «عيسى» و «محمد»**.

وبالرغم مما يتمتع به من مكانة مرموقة «تقترب من مكانة فرعون – حسب وصف أحد النقاد القاهريين –، فقد اضطر أن ينشر العمل فى لبنان). . .

[عن مقدمة جون فاولز **للترجمة الإنجليزية لميرامار** التى قامت بها د. فاطمة موسى محمود – دار هاينمان والجامعة الأمريكية – طبعة ١٩٧٨]

(وأيًّا ما كان السبب، فإنه عندما نشر محفوظ روايته التالية مسلسلة فى «الأهرام» القاهرية اليومية سنة ١٩٥٩، كان قراؤه المتعطشون لفنه على موعد مع مفاجأة.

فقد كانت «أولاد حارتنا » – المنشورة فى ترجمة انجليزية تحت عنوان «أبناء الجبلاوى » – قصة رمزية متفردة عن تاريخ البشرية منذ الخَلْق أو التكوين وحتي عصرنا الحاضر، وفيها **تُنزع عن أصحاب اليهودية والمسيحية والإسلام قداسهتم ويتم تمثيلهم، تحت ستار رقيق، باعتبارهم لايزيدون عن كونهم مصلحين إجتماعيين** ناضلوا بأقصى جهدهم لتحرير شعوبهم من الطغيان والاستغلال.

وثمة شخصية أخرى فى القصة الرمزية **تُمثِّل العلم الذى يتم إظهاره على أنه حلّ محل الدين وعلى يديه تحقق فى النهاية موت الله.** وعلي غرار معظم روايات محفوظ، تنتهى «أبناء الجبلاوى» بنغمة تشاؤم حزين ، وإن كان ثمة بصيص من الأمل. فالتشاؤم الحزين – فى هذه

الحالة – هو إفساد (أو إساءة استغلال) «عرفة» (العلم) وتحالفه مع القوى الغاشمة التي تقضي عليه فى النهاية ، بينما يكمن الامل في كراسته الاخيرة التي تحتوي علي الوصفات أو التراكيب الخاصة بالتقدم والسعادة. والمشهد الاخير يصور البشرية وهي تنقب في حماس واستثارة وسط أكوام القمامة عن شيء يبشّر بخلاصها). .

[عن مقدمه د/ رشيد السعناني **لترجمته الانجليزية لرواية «حضرة المحترم» لنجيب محفوظ** – ص ١٠ من المقدمة -- نشر الجامعة الامريكية بالقاهرة – ١٩٨٧]

(عندما ظهر عمله الجديد – ابناء الجبلاوي – **أثار فضيحة**، ليس فقط من جرّاء موضوعه الرئيسى، ولكن أيضاً بسبب تكنيكه الذي كان يمثل تخلّيًا تامًا عن الاسلوب العتيق للرواية الوصفية، وبالاستفادة من **التاريخ الديني بطريقة رمزية**، أوحت الرواية بأن النظام الجديد لن يختلف كثيراً في نهاية المطاف عن النظم القديمة، وقد فعلت الرواية ذلك بذكاء قوي وثاقب بدا وكأنه حوّل خيبة الامل السياسية – أو حتى اليأس السياسى – إلى حرية جديدة للتعبير).

[عن مقدمة جون روديـنبك **للترجمة الانجليزية لرواية الشحاذ لنجيب محفوظ** التي قام بها كريستين ووكر هنري وناريمان خالص نايلي الوراقي الجامعة الامريكية بالقاهرة – سنة ١٩٨٦ . ص٦]

(وقد صدر لنجيب محفوظ – الذي يعد كاتبًا متنوع الانتاج وغزيره – عدد من الروايات الأخري منها «أولاد حارتنا» سنة ١٩٥٩ – وصدرت بالانجليزية بعنوان «أبناء الجبلاوي» – **وهي رواية رمزية لها دلالات ميتافزيقية تتناول الانسان في بحثه وتعطشه للإيمان الدينى) .**

وقد تأثر محفوظ تأثرًا عظيمًا بأعمال طه حسين ، وعباس العقاد، **وسلامة موسى،** وهو يعترف صراحةً بهذا التأثر. ويقول محفوظ إنه تعلم معنى **التمرد الفكري** من طه حسين ، واكتسب الايمان بقيمة الفنون والديمقراطية والحرية الفردية من العقاد... **ومن سلامة موسى اكتسب محفوظ وعيًا بقيمة العلم والاشتراكية** والتسامح الفكرى، وكذلك أتيحت الفرصة لنشر عدد كبير من مقالاته في «المجلة الجديدة»...

[عن المقـــدمة التى كتبها د. رمسـيس عوض **لترجمته الانجليزية لرواية «بداية ونهاية» لنجيب محفوظ** – ص٦، ص٨ – الجامعة الأمريكية بالقاهرة – سنة ١٩٨٥]

لا يحدث كثيرًا **أن يقود الدعاة أتباعهم إلى الشوارع لكى يعلنوها صيحةً تطالب بحظر رواية من الروايات** أشاد بها الكثيرون باعتبارهم من الروائع، كما لا يحدث كثيرًا أن يضطر رئيس تحرير لصحيفة كبرى **أن يعتمد على صداقته لرئيس الدولة لكى يضمن استمرار نشر رواية مسلسلة كاملة دون حذف حتى نهايتها.** ولكن هذا ما حدث فى مصر فى عهد عبد الناصر سنة ١٩٥٩ عندما نشرت جريدة «الأهرام» شبه

الرسمية «أبناء الجبلاوى» بقلم نجيب محفوظ وقد بلغت الضجة والهياج إلى الدرجة التى أصبح فيها ولا ناشر مصرى واحد يجرؤ على أن يصدر الرواية فى كتاب، وظلت لسنوات تتنقل من يدٍ إلى يد فى طبعتها الصحفية. وليس قبل عام ١٩٦٧ -وفى لبنان- أن أصبحت أخيراً متاحة فى شكل كتاب -**وإن كان به حذف طفيف**- وصدر عن « دار الآداب ».

وكان السبب وراء هذا العنف الذى اتسمت به ردود الأفعال هذه أن نجيب محفوظ **تناول بجرأة** القضايا التى ينقسم حولها على نحو عميق الناس لا فى مصر وحدها، **بل ربما فى العالم كله**. ذلك أن الأبطال الذين يعقب بعضهم بعضاً فى الحارة القاهرية الخيالية لنجيب محفوظ يَحْيَوْنَ من جديد دون أن يدروا حياة كلٍّ من آدم وموسى وعيسى ومحمد، بينما سلفهم المعمَّر -وهو الجبلاوى- **يمثّل الله**، أو بمعنى أصح **«ليس الله، ولكن فكرة معينة عن الله صنعها الناس»** كما عبَّر بذلك نجيب محفوظ فى سياق مناقشة لى معه، ولذلك فإن **مصيره** «مصير الجبلاوى» **يكتسب دلالة بغيضة مروعة**.

ومعظم القراء أصبحوا مرتبطين ومتعايشين بحرارة (مع العمل) حتى إنهم استطاعوا أن يروا فى الرواية أيديولوجيتهم هم فقط، أو أن يروا فيها فقط أيديولوجية معارضيهم الذين يكرهونهم، بالرغم من أن دراسةً أكثر عمقًا للرواية من شأنها أن تُطلعهم أن الكتاب له أبعاد كثيرة وأن تفسيره ليس بالمهمة السهلة.

وقد أذهل محفوظ أصدقاءه وخصومه على السواء وأربكهم باختياره للموضوع. فقد كان حاز لنفسه شهرة باعتباره «جالزورثى

مصر»، وخصوصاً بفضل «ثلاثيته» التى أتمها سنة ١٩٥٢ وعنها منح -مناصفةً- جائزة الدولة للآداب سنة ١٩٥٧. فلماذا يتحول الآن هذا المؤرخ للتاريخ الاجتماعى إلى **موضوع دينى؟** إلاَّ أن نظرة ثانية إلى أعماله السابقة تبيّن أن **القضايا الروحية** التى انشغل بها لم تكن بأى حال من الأحوال أمراً جديداً عليه، فحتى فى «زقاق المدق» التى نشرت أول مرة سنة ١٩٤٧... نجد الشخصيتين الرئيسيتين هما «رضوان الحسينى» الذى وطأ أحزان الدنيا بنعليه، وطار بقلبه إلى السماء، وأفرغ حبه على الناس جميعًا». و«الشيخ درويش» الذى «هجر أهله وإخوانه ومعارفه إلى دنيا الله». وبالمثل، فإن محفوظ فى الأعمال التى نشرها منذ ١٩٥٩، عاد مرةً بعد مرةً إلى موضوعات الوهم والحقيقة والهلوسة والتنوير الصوفى، وتجلى ذلك بوضوح في قصة **«زعبلاوى» التى هى بمثابة مذكرة الكاتب التفسيرية لشخصية «الجبلاوى»**.

[عن مقدمة فيليب استيوارت **لترجمته الانجليزية لـ «أولاد حارتنا» لنجيب محفوظ بعنوان «أبناء الجبلاوى»** -دار هاينمان- لندن - ١٩٨١ - ص٧،ص٨]

من «جبلاوى ... إلى زعبلاوى!! »

وجدنا في الفقرات التي اقتبسناها من مقدمة فيليب استيوارت لترجمته الانجليزية لـ «أولاد حارتنا» إشارة إلى قصة تالية للأستاذ نجيب محفوظ بعنوان «زعبلاوى» وقد وصف المترجم شخصية «زعبلاوى» بأنها التفسير الذى قدمه المؤلف لشخصية «جبلاوى» فى «أولاد حارتنا» .

ولخطورة هذا الرأى – وهو ليس رأى المستشرق الانجليزى وحده بل يكاد يكون محل إجماع النقاد– ولأهميته وصلته الوثيقة بدراستنا الحالية لأولاد حارتنا وشخصياتها– وعلى رأسهم «الجبلاوى»– نلخص للقارىء قصة «زعبلاوى» .

وقبل أن نلخصها ونحلّل ما فيها من فقرات ذات مغزى، نشير إلى شدة اعتزاز الكاتب بها من بين عدد كبير من القصص القصيرة التى كتبها، فقد اختارها علي رأس اثنتى عشرة قصة قصيرة لكى تنشرها سلسلة روايات الهلال بمناسبة فوزه بجائزة نوبل للآداب عام ١٩٨٨، كما نذكر أنه أهداها لأخبار اليوم. فأعادت نشرها كذلك بنفس المناسبة.

تقول مقدمة عدد روايات الهلال المشار إليه (رقم ٤٧٩) عن هذه القصة إنها «**واحدة من أشهر قصص نجيب محفوظ القصيرة**، ولعل سبب ما حظيت به من اهتمام أنها تكاد أن تكون تلخيصاً وتكثيفاً

لرحلتين سيقوم بهما بطلا روايتيه التاليتين: «الطريق» ١٩٦٤، ثم «الشحاذ » ١٩٦٥ ، فما أشبه الباحث عن زعبلاوى بصابر بطل «الطريق» في بحثه «عن الحرية والكرامة والسلام»، وبعمر الحمزاوى المتسائل عن « معنى الحياة، الأبطال الثلاثة يجمع بينهم أنهم فى **رحلة بحث عن شخص كلى القدرة**، أو شيء يهب المعنى لحياة بلامعنى، وتتعدد سبل البحث. من الدين إلى العلم، ومن الخمر الي التصوف، ومن الحب الي الجنس، وقد يجد الباحث في اخرالطريق الموت او الجريمة ، لكن هذه ليست النهاية ، فالامل يبقي موجوداً... إلخ.

يقول راوي القصة – وهو ليس بطلها الحقيقي ، فبطلها كما سنري هو الغائب الحاضر زعبلاوي – إنه كان يسمع عن الشيخ زعبلاوي منذ طفواته وخطر له ان يسأل اباه عنه كعادة الاطفال في السؤال عن كل شي ، فسأله :

« – من هو زعبلاوى ياأبى؟

فرمقنى بنظرة مترددة كأنما شك في استعدادى لفهم الجواب، لكنه قال:

– فلتحل بك بركته، إنه ولى صادق من أولياء الله، وشيّال الهموم والمتاعب، ولولاه لمتّ غماً»...

ثم تمر السنوات «حتى أصابنى الداء الذى لا دواء له عند أحد، وسدت فى وجهى السبل وطوقنى اليأس»...

وهكذا نحس من بدايات القصة أن هذه الشخصية رمزية... وأنها

بالتحديد ترمز لله تعالى.. وإذن فالراوى فى رحلة بحث عن الله.. هو يسمع عنه منذ طفولته، ولكنه يريد أن يعثر عليه أو يجده «عليّ أن أجد الشيخ زعبلاوى» بمعنى أن يقتنع بوجوده أو يراه بعقله .

ومن الطبيعى أن يخلص فى البحث عنه عندما «تسد فى وجهه السبل ويطوقه اليأس «لأن الإنسان يكون أقرب ما يكون من الله وقت الأزمات والضيق.

ويبدأ البحث – الذي هو أشبه بالمطاردة البوليسية– فيذهب الراوى إلى كل من يسمع أن له صلة أو كانت له صلة بهذا الشيخ.. وهنا لا يمكن أن تفوتنا دلالات ما يقوله هؤلاء عنه واحداً بعد الآخر، ويصل فهمنا للدلالات إلى ذروته إذا وضعنا فى أذهاننا الدلالات الموازية التى سبق أن بثها الكاتب فى تناوله للجبلاوى فى «أولاد حارتنا» كما سيتبين للقارىء فى الجزء الخاص بذلك من هذا الكتاب .

يقول الشيخ قمر المحامى الشرعى:

«كان ذلك فى الزمان الأول، وما أكاد أذكره اليوم»..

فإذا كان «زعبلاوى» يرمز لله تعالى، فالمعنى هو نفسه الذى جاء فى «أولاد حارتنا»، وهو أن الله وُجد فقط، أو وجد الإيمان به فقط. فى العصور القديمة.. عصور الأسطورة والخرافة، قبل أن يضع العلم –الإله الجديد– حداً لذكره بين الناس .

ويقول بائع الكتب القديمة:

«زعبلاوى! يا سلام! والله زمان! كان يقيم فى هذا الربع حقًا عندما

كان صالحًا للإقامة ... ولكن أين زعبلاوى اليوم؟» .

وهذا الربع يرمز للعالم القديم.. فالله تعالى كان يقيم فيه لأن ذلك العالم -بتفكيره الخرافى أو الأسطورى قبل النضوج وقبل عصر العلم- كان يصلح لإقامة الإله فيه أما الآن .. فأين هو؟!

إذن ، مازلنا أمام التفسير المادى الالحادى..

ثم يقول عنه شيخ الحارة:

- ربما صادفته وأنت خارج من هنا على غير ميعاد ، وربما قضيت الأيام والشهور بحثاً عنه دون جدوى... إنه رجل يحيّر العقول»

وهذا ينقل معنى التخبط في رحلة البحث عنه.. فليس هناك - بهذا المنطق - خيط يمكن تتبعه حتى نصل إليه، بل إن الأمر من قبيل المصادفة البحتة: بعض الناس يجدونه وبعضهم لايجدونه.. الذي لايبحث عنه قد يصادفه فجأة، والذي يبحث عنه الأيام والشهور قد لايجده! واللوم عليه هو - على زعبلاوي - لأنه **«يحيّر العقول»!**

وهذا المنطق غريب جداً، لأن المنتظر ممن يبحث عن خالق للكون بعقلانية أن يُعمل عقله في نفسه وفيما حوله ويتتبع خيطاً أو أكثر من تلك الخيوط الكثيرة التي تصل به إليه - كنظام الكون البديع، وبدائع الخلق، واستحالة الوجود بالصدفة، إلى آخر ذلك - فلابد له أن يصل إليه - بعقله - إذا كان مخلصاً. أما المستهتر الذي لايبذل هذا الجهد فأحرى به ألا يهتم بالأمر أو يفكر فيه، وبالتالي قد لايصل إليه مع كونه أمراً فطرياً.

أما هنا، فالكاتب يقلب هذا المنطق العقلاني - الذي يدّعيه - رأساً على عقب، ويجعل من رحلة البحث عن الخالق أمراً عبثياً يخضع للمصادفة البحتة.. فيصادر على المطلوب، لأنه لو كان يفترض وجود خالق - افتراضاً جدلياً - لتصوّر هذا الخالق مهتماً بأن يهدى خلقه إليه على الأقل.. وينير لهم سبل الهداية.. ولايتفرج عليهم وهم في هذه الحيرة القاتلة! تعالي الله عن ذلك علواً كبيراً.

ويقول شيخ الحارة عبارةً دالة:

- كان الله في عونك، **لكن لِمَ لاتستعين بالعقل؟** » وإن كان ما ذكرناه الآن يتنافي مع ذلك، لكن «العقل» هنا يوحي بشيء آخر، فيه رائحة العلم المادي..

ويقول عم حسنين الخطاط (وأمامه لوحة مكتوب عليها «الله»):

«كان ياما كان، الرجل اللغز! يقبل عليك حتى يظنوه قريبك، ويختفي فكأنه ما كان..».

فنجد هنا عبارة «كان ياما كان» تعطى دلالة الخرافة أو الأسطورة ، لأنها العبارة الموروثة التي تبدأ بها الحكايات الشعبية الخرافية، ثم تأتي عبارة «الرجل اللغز» فتكثف المعنى.

ويقول المطرب عن زعبلاوي:

« - هذا الرجل يتعب كل من يريده، كان أمره سهلاً في الزمان القديم عندما كان يقيم في مكان معروف، اليوم الدنيا تغيرت، وبعد أن يكان يتمتع بمكانة لايحظى بها الحكام بات البوليس يطارده بتهمة

الدجل...».

فهو أولاً يتعب كل من يريده (.. البحث عن الله أمر شاق لاييسّره الخالق نفسه، وهو ما يتناقض مع الحقيقة القرآنية ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب﴾ ، ثم إن أمره كان سهلاً في الزمان القديم عندما كان يقيم في مكان معروف (العزف على نفس النغمة التي أشرنا إليها فيما سبق)، وهو بعد أن كان يتمتع بمكانة لايحظي بها الحكام (= أي أن تأثير القوة الروحية كان قديماً أكبر من تأثير السلطة الزمنية) أصبح الآن مطارداً من الشرطة (= لعلها ترمز للعلمانية وقواها) بتهمة الدجل (= أي الخرافة)!

ثم تصل القصة إلي ذروتها عندما يذهب الراوي إلى حانة النجمة ليقابل الحاج ونس الدمنهوري الذي سمع أن «زعبلاوي» يتردد عليه.

ودعك من التناقض الغريب بين لقب الحاج وأنه شخص وثيق الصلة بولي من الأولياء ثم يسهر كل ليلة في «حانة» يحتسي أقداح الخمر ويقضي وقته مخموراً! دعك من هذا، لأنه أولاً ليس موضوعنا، ولأنه ثانياً من التيمات المفضلة لدى الأستاذ نجيب محفوظ أن تحيا الشخصية حياتين متناقضتين، ولا بأس أن يكون الشخص متصوفاً وعربيداً في نفس الوقت!

يذهب الراوي لمقابلة الحاج ونس فيكتشف أنه حيال **«سكير خطير»**، وما إن يلقي عليه تحية المساء حتى يبادره بقوله:

«– تفضل بالجلوس أولاً، واسكر ثانياً !

ففتحت فمي لأعتذر لكنه وضع أصبعيه في أذنيه وقال:

- ولا كلمة حتى تفعل ما قلت..

أدركت أنني حيال سكران ذي نزوات فقلت أسايره حتي منتصف الطريق فجلست وابتسمت وقلت:

- أرجو أن تسمح لي بسؤال واحد..

لم يرفع أصبعيه من أذنيه، وأشار إلى الزجاجة وقال:

- في مجلس كمجلسي هذا لا أسمح بأن يتصل بيني وبين أحد كلام إن لم يكن سكران مثلي، وإلا خلا المجلس من اللياقة وتعذر فيه التفاهم..».

إذن فالحاج ونس الدمنهوري (أقرب شخصيات القصة إلى زعبلاوي أي يرمز للمتدينين أو المؤمنين) رجل سكّير أولاً (= شيء من قبيل أن الدين أفيون الشعوب، والخمر هنا بديل للحشيش في أولاد حارتنا الذي كان يتعاطاه أصحاب الأديان وأتباعهم جميعاً).

ثم هو يرفض أن يتصل بينه وبين أحد حوار إلا إذا كان «سكران مثله».. أي مؤمناً مثله.. أو بمعنى أصح «مغيّب العقل في أوهام الإيمان» مثله، وإلا تعذّر التفاهم!

فكأن ما يراد أن يقال هو أن المؤمنين يرفضون أن يحاوروا العقلانيين إلا إذا تخلى العقلانيون عن يقظتهم.. ورضوا بأن يغيبوا عن الوحي مثلهم.. وكأن الله تعالى حقيقة يصعب أو يستحيل على الإنسان أن يصل إليها بكامل عقله!!

ويظل الحاج ونس يملأ للراوي كأساً وراء أخرى حتى يغيب عن الوعي ويفقد إرادته وتضيع ذاكرته ويختفي المستقبل ويدور به كل شيء (= كناية عن أن الولوج في الإيمان يُفقد الإنسان إرادته ووعيه وذاكرته شيئاً فشيئاً، وكلما زادت الجرعة زاد الخدر وفقدان الوعي والعقل والإرادة).

ويغيب الراوي في نوم عميق، ويحلم حلماً جميلاً لم يحلم بمثله من قبل، فيحلم بأنه في حديقة لاحدود لها تنتشر في جنباتها الأشجار بوفرة سخية فلا ترى السماء إلا كالكواكب خلل أغصانها المتعانقة.. وأنه كان مستلقياً **فوق هضبة من الياسمين** المتساقط كالرزاز ورشاش نافورة صاف ينهل على رأسي وجبيني دون انقطاع.. بينما جوقة من التغريد والهديل والزقزقة تعزف في أذني..» والحلم رمز للجنة ونعيمها، إما الجنة الموعودة في الآخرة للمؤمنين أو الجنة المجازية بمعنى حياة الطمأنينة التي يحياها المؤمنون بفضل إيمانهم، ولما كان الراوي قد استمتع بها في «الحلم» فقط.. وهو «حلم جميل لم يحلم بمثله من قبل» فالمقصود أن الجنة الأخروية أو الجنة المجازية كليتهما لاوجود لها إلا في عالم الخيال اللذيذ فحسب!

ويفيق الراوي بعد فترة قصيرة فيحس أن رأسه مبتل فيقول له ونس:

– نعم، حاول صاحبي أن ينبهك.

– أرآني أحد على هذه الحال؟

– لاتغتم، إنه رجل طيب، ألم تسمع عن الشيخ زعبلاوي؟

فانتفضت قائماً وأنا أهتف:

- زعــبلاوي !

فقال بدهشة:

- نــعم، مالك؟

- أين هو؟

- لا أدري أين هو الآن، كان هنا ثم ذهب..»

ويستبد الغيظ بالراوي ويصيح بيأس «ما جئتك إلا لألقاه، ساعدني على اللحاق به أو أرسل أحداً في طلبه» لكنهم لايجدونه.

ويقوله له الحاج ونس: «ياخسارة! كان يجلس على هذا الكرسي إلى جانبك وكان يتغزل طيلة الوقت **بعقد من الياسمين** حول عنقه أهداه إليه أحد المحبين..» إذن فقد كان زعبلاوي مصدر الحلم بالجنة.. والياسمين الذي حول عنقه هو الذي رآه صاحبنا في الحلم فوق رأسه (=الإيمان بالله مصدر الأوهام ومنها الجنة ونعيمها!).

ثم يسأل الراوي الحاج ونس:

« - هل يقابلك هنا كل ليلة؟

- كان معي الليلة، وليلة أمس، وأول أمس، وأول أمس.... »

إن الذى كان مع ونس « الليله وليله أمس وكل ليله» هو في الحقيقة الخمر التي يتعاطاها، فزعبلاوي هو الخمر التي تذهب بالعقل وتصوّر للإنسان ما يتمنى ويشتهى وتسبح به في بحار من الخيال اللذيذ !

ويساهر صاحبنا ونس الدمنهوري الليلة التالية حتى الفجر ولكن الشيخ لايحضر... «ولكنني كنت أضيق أحياناً بطول الإنتظار فيساورني اليأس، **وأحاول اقناع نفسي بصرف النظر نهائياً عن التفكير فيه. كم من متعبين في هذه الحياة لايعرفونه أو يعتبرونه خرافة من الخرافات فلم أعذب النفس به على هذا النحو؟»**

أي كم في الحياة من بشر يعانون - وبالتالي يُفترض أن يكونوا في حاجة إليه - ومع ذلك هم لايعرفونه (= لاأدريين) أو يعتبرونه خرافة (=ملحدين) فلمِ يعذّب صاحبنا نفسه به؟!

ومع ذلك ما إن تُلحْ عليه الآلام حتى يعود إلى التفكير فيه، وتنتهى القصة بنفس الجملة التي بدأت بها «نعم، عليّ أن أجد زعبلاوي».

وهي جملة فيها بصيص من أمل تركه الكاتب، ولكنه - في رحلة البحث الشاقة الطويلة اليائسة - أشبه بسراب يخاله الظمآن ماءاً !

كتب الأستاذ نجيب هذه القصة - أو بالأصح نشرها - عام ١٩٦٢ بعد أن انتهت الضجة حول «أولاد حارتنا» وليس بين «زعبلاوي» و «أولاد حارتنا» من إنتاج الكاتب سوى «اللص والكلاب»، فكأنه - وقد وعي درس «أولاد حارتنا» - أفرغ نفس الفكرة أو فكرة قريبة منها في قالب رمزي أيضاً ولكنه في شكل قصة قصيرة لاتظهر فيها الرموز صريحة ناطقة كـ «أولاد حارتنا» بحيث تمر الأمور بسلام، ويكون هو في نفس الوقت قد قال ما عنده!

والطريف أن الإسم الذي اختاره الكاتب لبطله الغائب الحاضر قريب

من حيث الوزن والموسيقى من بطل «أولاد حارتنا» مما يزيد في أواصر القربى بين البطلين !

فما أقرب «زعبلاوي» حين تنطقها من «جبلاوي» وللأستاذ نجيب – والحق يقال – براعة فائقة في انتقاء كم هائل من الأسماء الغريبة – وأحياناً المضحكة – التي يخلعها على كثيرمن شخوص رواياته وقصصه !

فها قد رأينا أن الأستاذ نجيب لايكتب فناً محكم البناء فحسب، بل لابد أن تكون خلفه – أو لنقل في ثنايا نسيجه – أفكار فلسفية. كل الخلاف أننا نرى الأستاذ نجيب قد حشا أعماله الفنية أفكاراً علمانية وإلحادية ردّد فيها ما قاله فلاسفة غربيون مما يمكن بسهولة – وبالعقل وحده أيضاً – تفنيده ودحضه.

حل الشفرة !

فيما يلى الرموز التى استعملها الكاتب فى الرواية وما تشير إليه من شخوص وأحداث، وقد رأينا تقديم دلالات الرموز و «حل الشفرة» حتى نخصص الهوامش والتعليقات أثناء العرض والتحليل لمناقشة الأفكار المطروحة وإلقاء مزيد من الضوء على مدى التلاقى والتباعد بين الرموز والدلالات :

١- الجبلاوى: الله سبحانه وتعالى.

٢-البيت الكبير السماء أو العرش .

٣- الحارة: العالم أو الكون .

٤- أدهم: آدم عليه السلام «والإسمان متقاربان» .

٥- عباس:
٦- رضوان:
٧- جليل:

فى الرواية: أبناء الجبلاوى ويرمزون للملائكة، فقد يكون عباس هو عزرائيل، ورضوان هو حارس الجنة، وجليل هو جبريل عليهم السلام، وإن كان الذى يرمز لجبريل سيأتى فى قصة قاسم تحت اسم «قنديل»، فيجب أن نلاحظ أن بعض الشخصيات تحمل أكثر من رمز.

٨- إدريس : إبليس، «والإسمان متقاربان».

٩- أُمَيْمَة: حواء عليها السلام «واشتقاق الاسم من «أم» يشير إلى أنها أم البشر» .

١٠- قدرى : قابيل

١١- همام : هابيل

ابنا آدم عليه السلام والقاف فى قدرى» والهاء فى «همام» للرمز إلى اسميهما الحقيقيين.

١٢- جبل: موسى عليه السلام «والإشارة فى الإسم إلى تكليم الله تعالى له فى جبل سيناء» .

١٣- الافندى: فرعون «والاسم يشير إلى تميزه وسيادته على قومه» .

١٤- السيدة هدى: امرأة فرعون «واسم هدى يشير إلى هدايتها وأنها امرأة مؤمنة على عكس زوجها» .

١٥- زقلط: هامان .

١٦-عم حمدان كبير بنى إسرائيل .

١٧-أهل حمدان: بنو إسرائيل .

١٨- قِدْرَة: الذى وكزه موسى فقضى عليه» .

١٩- دِعْبِس: الذى استغاث موسى واستصرخه مرتين .

٢٠- ضُلْمة: الذى جاء من أقصى المدينة يسعى «قال يا

موسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج» .

٢١- البلقيطى: الرجل الصالح -أو شعيب- فى قصة سيدنا موسى عندما ورد ماء مدين وسقى لبنتيه .

٢٢- شفيقة: بنت الرجل الصالح التى تزوجها موسى .

٢٣- سيدة : أختها .

٢٤- عَبْدَهْ : مريم عليها السلام «والاسم يشير إلى نذرها للعبادة منذ ولادتها».

٢٥- شافعي: يوسف النجار.

٢٦- رفاعة: عيسى المسيح عليه السلام (لأن الله تعالى رفعه إليه).

٢٧- زُنْفُل «الفتوة الذي كان يقتل الأطفال الرُضَّع» هيرودس الذي كان يقتل أطفال بيت لحم عندما ولد المسيح..

٢٨- خُنْفِس: الحاكم المعاصر للسيد المسيح، ولعله بيلاطس.

٢٩- تمرد إدريس وطرده من بيت الجبلاوي: تمرد إبليس وطرده من رحمه الله.

٣٠- طرد أدهم وأميمة من بيت الجبلاوي حيث النعيم إلى الشقاء في الصحراء.	أخراج آدم وحواء من الجنة بعد المعصية إلى الأرض حيث الكد والتعب.
٣١- عصيان أوامر الجبلاوي بعدم الإقتراب من الكتاب السري.	عصيان آدم لنهي الله تعالى عن الإقتراب من الشجرة.
٣٢- الكتاب السري:	اللوح المحفوظ.
٣٣- الشروط العشرة في الكتاب السري:	(١) الوصايا العشر في اليهودية. (٢) الكتب المنزله المقدسة.
٣٤- قتل قدري لهمام:	قتل قابيل لهابيل.
٣٥- لقاد جبل بالجبلاوي في	تكليم الله تعالى لسيدنا موسى عليه السلام في طور سيناء.

الظلام في صحراء المقطم:

٣٦- ياسمين البغيّ التي دافع عنها رفاعة ثم خانته وأسلمته لأعدائه:
(١) مريم المجدلية التي قال فيها المسيح (من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر).
(٢) يهوذا الذي خان السيد المسيح.

٣٧- العشاء الذي تناوله رفاعه مع ياسمين وزكي وكريم وعلي وحسين:
العشاء الأخير للسيد المسيح مع حوارييه.

٣٨ - حارة الجرابيع (١)
مكة حيث نشأ رسول الله ﷺ وفي الإسم إشارة إلى حالة أهل الرسول من حيث الفقر، وإن كان هذا حتى مع كونه رمزاً مرفوضاً - لايبرر سوء الأدب في اختيار الإسم.

٣٩- الجرابيع:
أهل الرسول ﷺ وأتباعه وأنصاره.

٤٠- قاسم:
سيدنا محمد ﷺ وفي الإسم إشارة واضحة إلى كنيته ﷺ (أبي القاسم).

٤١- زكريا (بائع البطاطا)	أبو طالب عم النبي ﷺ الذي كفله (وفي الإسم تشبيه بالنبي زكريا الذي كفل مريم.
٤٢- حسن:	سيدنا علي رضي الله تعالى عنه (وفي الإسم إشارة إلى كنتيه أبي الحسن).
٤٣- يحيى:	ورقة بن نوفل.
٤٤- السيدة قمر:	السيدة خديجة رضي الله تعالى عنها (ولعل في الإسم إشارة إلى جمالها).
٤٧- صادق:	أبو بكر الصديق رضي الله تعالي عنه (والتشابه بين الإسمين واضح).
٤٨- سكينة (خادمة قمر)	نفيسة صديقة خديجة.
٤٩- قنديل (خادم الجبلاوي ورسوله إلى قاسم	ناموس الوحي (جبريل) عليه السلام الذي جاء لسيدنا محمد ﷺ في الغار. ولعل للإسم دلالة لأن القنديل يعني النور والملائكة من نور، بالإضافة إلى اشتراك الإسمين في المقطع الأخير (الياء واللام).

٥٠- بدرية (أخت صادق)	السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها، ابنة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه (ولعل في الأسم اشارة إلى جمالها ونضجها كالبدر).
٥١- عَرَفه (الساحر الذي تسبب في موت الجبلاوي).	الشيوعي الملحد الذي ينكر وجود الله تعالى وكل مالايراه بعينيه والذي كان وجوده، أي وجود فكره وعلمه المادي، إيذاناً بانتهاء عصر الدين في زعم المؤلف، أو أن عرفه هو نفسه العلم المادي العلماني.
٥٢- كراسة عرفه (المدون فيها علوم السحر)	أسرار العلم الحديث الذي يمثل الإنقاذ والخلاص الوحيد للبشرية، حسب منطق الكتاب.

أولاد حارتنا .. تحليل وتعليق

المقدمة

تبدأ الرواية الضخمة بمقدمة يقول فيها الكاتب:

هذه حكاية حارتنا.. أو حكايات حارتنا، لم أشهد أنا من واقعها إلا طوره الأخير، ولكنى سجلتها جميعًا كما يرويها الرواة، وما أكثرهم، وكما نقلتها الأجيال، وهذه حكايات تروى فى ألف مناسبة ومناسبة. فكلما ضاق بأحد حاله أو ناء بظلم سوء معاملة أشار إلى البيت الكبير على رأس الحارة من ناحيتها المتصلة بالصحراء وقال فى حسرة :

«هذا بيت جدنا جميعنا من صلبه. ونحن مستحقو أوقافه، فلماذا نجوع وكيف نُضام؟».

ثم تقص هذه الحكايات قصص أبطال حارتنا العظام : أدهم، وجبل، ورفاعة، وقاسم.

جدنا هذا لغز من الألغاز، عمَّر فوق ما يطمع إنسان أو يتصور.. حتى ضرب المثل بطول عمره واعتزل فى بيته لكبره منذ عهد بعيد فلم يره منذ اعتزاله، أحد - وكان يدعى الجبلاوى (= **بداية تقديم الشخصية التى ترمز لله تعالى**)

وباسمه سميت حارتنا وهو صاحب أوقافها.. وكل قائم فوق أرضها والأقطار المحيطة بها فى الخلاء.

ثم جاء زمان فتناولته قلة من الناس بكلام لا يليق بقدره ومكانته.. وكم دفعنى ذلك إلى الطواف ببيته الكبير لعلى أفوز بنظرة منه دون جدوى. أليس من المحزن أن يكون لنا جد مثل هذا الجد دون أن نراه أو يرانا (= **المنطق المادى هو الذى يتحدث.. وهو يصرّ على أن يرى الخالق العظيم بعينيه لكى يؤمن به!**)

إن أحداً لم يره منذ اعتزاله، ولم يكن ذلك بذى بال عند أكثر الناس، فلم يهتموا إلا بأوقافه (= **خيرات الدنيا**) وبشروطه العشرة، ومن هنا نشب النزاع فى حارتنا منذ ولدت ومضى خطره يستفحل بتعاقب الأجيال حتى اليوم والغد.

أدهـــــم

كان مكان حارتنا خلاء، فهو امتداد لصحراء المقطم الذى يربض فى الأفق.. ولم يكن فى الخلاء من قائم إلا البيت الكبير، الذى شيده الجبلاوى كأنما ليتحدى به الخوف والوحشة وقطاع الطريق.

وذات يوم استدعى سيد البيت أبناءه إلى حجرة الجلوس بالطابق السفلى، وجاء أبناؤه جميعاً: إدريس وعباس ورضوان وجليل وأدهم مرتدين حللهم الحريرية.

ويخبرهم أنه رأى من الأفضل أن يعهد بإدارة الأوقاف إلى شخص آخر غيره. وظن الجميع أنه سيعهد بها إلى إدريس، ابنه الأكبر، ولم يشك أحد فى ذلك.

ولكن المفاجأة أن الجبلاوى يختار أدهم بدلاً من إدريس (= «**إنى جاعل فى الأرض خليفة**») {سورة البقرة: ٣٠}.

ويثور إدريس ويحتج بأنه أكبرهم، ولكن الأب يؤكد له أن اختياره لصالح الجميع (= «**قال إنى أعلم ما لا تعلمون**») {سورة البقرة: ٣٠}.

ويقول إدريس : «إننى وإخوتى أبناء هانم خيرة النساء، أما هذا فابن جارية سوداء» (= «**أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين**») {سورة ص: ٧٦}.

ويرد الجبلاوى - بعد أن يأمر إدريس بالتزام الأدب - بأن أدهم

يعرف المستأجرين ومعظم أسمائهم، وعلى علم بالكتابة والحساب (= **«وعلّم آدم الأسمـــاء كلها ثم عرضـــهم على الملائكة..»)**

وتثور ثائرة إدريس وينفجر قائلاً : أى نوع من الآباء أنت؟ خلقت فتوة جباراً.. فلم تعرف إلا أن تكون فتوة جباراً.. ونحن أبناؤك، تعاملنا كما تعامل ضحاياك العديدين !

(لم يرد فى القرآن ولا فيما نعلم من آثار الكتب المقدسة اجتراء إبليس على مقام الألوهية هكذا حتى فى موقف التمرد والعصيان، وهكذا نرى أن المؤلف لا يحتذى النصوص المقدسة مقابلاً إياها بالرموز فقط، بل يشطح بخياله كثيراً ليقص القصة من جديد كما يتراءى له)

والحق أنه لم يبد من الأب قبل هذا اليوم ما ينم عن التحين، فى معاملته لأبنائه... حتى إدريس على قوته وجماله وإسرافه أحياناً فى اللهو لم يسىء قبل ذلك اليوم إلى أحد من إخوته. كان شاباً كريماً حلو المعشر (= **هنيئًا لإبليس دفاع الأستاذ عنه!)**

وينتهي الموقف بطرد إبليس من البيت، بينما يتولى أدهم إدارة الوقف.

فكان أدهم يذهب كل صباح إلى مكتب الوقف فى الحديقة المجاورة للبيت الكبير، يعمل بجد واجتهاد، يجمع الايجار من المساكن ويوزع الأسهم على المنتفعين ثم يعرض الحسابات على أبيه.

ويتعلق قلب أدهم بفتاة فى البيت الكبير هى أميمة ويتم زواجهما.

أما إدريس فيدخل فى حالة شبه دائمة من السكر والعربدة على

مقربة من البيت الكبير ويرسل لعناته فى الهواء.

ويفاجىء إدريس أدهم بزيارة أثناء عمله ويطلب منه أن يسدى إليه معروفًا هو أن يطّلع على ما دوّن الأب «الجبلاوى» فى الكتاب السرى ثم يخبر إدريس إن كان له نصيب فى الوصيّة أم لا حتى يعرف مستقبله، ويظل إدريس يغرى أدهم مظهرًا له الود وصدق النية والإخلاص ويستعطفه، ولكن أدهم يستنكر أن يقوم بعمل مثل ذلك، لأن الجبلاوى حرّم على الجميع أن يقتربوا من الحجرة الصغيرة التى تحتوى على الكتاب السرى والملحقة بغرفة نومه. (= «**ولا تقربا هذه الشجرة**») {سورة البقرة: ٣٥}.

ولكن أميمة تعلم بالأمر وتظل تحرّض زوجها على أن يفعل ذلك وتزيّنه له باعتباره لن يضرّ أحدًا، بينما سينتفع به إدريس فيعلم اذا ينتظره وسيعلم كذلك أدهم وأميمة ماذا سيكون نصيبهما.

ويظل أدهم فريسة للتردد.. إلى أن يقدم على هذا الأمر، وينتهز فرصة عدم وجود أبيه ويتسلل إلى الحجرة الصغيرة الداخلية بينما تنتظره أميمة بالمصباح في الخارج.

وقبل أن يتمكن أدهم من قراءة محتوى الكتاب السرى يفاجئه أبوه ويمسك به متلبسًا ويعرف منه أن إدريس هو الذي أغراه بارتكاب هذا الخطأ.

وينفتح باب البيت الكبير.. ولكن هذه المرة لكى يكون الطرد من النعيم إلى الشقاء الخارجى من نصيب أدهم وأميمة (= **إخراج آدم**

وحواء من الجنة بعد المعصية)

ويقيم أدهم وأميمة فى كوخ صغير خارج البيت الكبير وإلى جواره كوخ مماثل شيده إدريس لنفسه عند طرده وعاش فيه مع زوجته.

ويفطن أدهم إلى أن إغراء إدريس له كان مكيدة لكى يطرد هو الآخر من البيت ويكونا سواءً بعد أن فضله الجبلاوى عليه.

ويسعى أدهم لكسب قوته وقوت أسرته على عربة يد يبيع فيها الخيار، وأصبح له ابنان قدرى وهمام.

وكأن قدرى ورث عن عمه إدريس صفاته الذميمة، بينما يتصف همام بالصفات الطيبة.

وتتكرر المأساة حينما يرسل الجبلاوى أحد خدمه إلى بيت أدهم يخبرهم فيه أنه قرّر أن يعيش همام مع جده وينعم بالسعادة فى قصره...

وتدب الفتنه حينما يرفض قدرى تمييز جده لأخيه همام واختياره وحده لهذا النعيم، ويحرّض إدريس قدرى على هذا التمرد.

وتصل الغيرة والنزاع بين قدرى الشرير وهمام الطيب ذروتها عندما يقتل قدرى أخاه ويدفنه فى الصحراء (= «**فطوعت له نفسه قتل أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين**») {سورة المائدة: ٣٠}.

ويفرّ قدرى بعد ذلك مع هند ابنة إدريس، ثم يعودان بعد زمان إلى الحارة ومعهما أولاد كثيرون من نسلهم جاءت الأجيال التالية.

جَـبَــــل

مات أبناء الجبلاوى صغارًا، والوحيد الذى بقى من نسلهم وعاش طيلة حياته فى البيت الكبير كان « الأفندى» وهو ناظر الوقف.

أما أهل الحارة فكانوا بين باعة جائلين وأصحاب دكاكين أو مقاهٍ وعدد كبير من الشحاذين، وقد استقر النظام على أن يسيطر ناظر الوقف على الحارة ومن فيها مستعينًا بالفتوات، فلكل حيّ فى الحارة فتوة يحمى أهله ويقهر من يعارضه ويدفع له الناس الإتاوات، ثم للحارة كلها فتوة رئيسى يساعد ناظر الوقف، وكان فتوة الأفندى هو زقلط الذى كان يعيش فى بيت مواجه لبيت الأفندى.

وكان أفقر الناس وأكثرهم تعرضًا للذل والهوان - مع كونهم أيضًا ينحدرون من نسل الجبلاوى- هم آل حمدان.

وفي بيت الأفندى وتحت كنفه وكنف زوجته السيدة هدى نشأ جبل وهو أصلاً من آل حمدان ولكن أهله ماتوا فتبنته السيدة هدى والأفندى لأنهما لا ينجبان.

وينشأ جبل موزع النفس والضمير بين ولائه للبيت الذى تربى فيه وانتمائه لآل حمدان المستضعفين.

ويثور آل حمدان ويذهبون - يتقدمهم حمدان - إلى بيت الأفندى طالبين العدل والإنصاف، لكنه يردهم خائبين ويُعمل فيهم فتوته البطش والتنكيل.

ويحاول جبل أن يتدخل لوقف، أو على الأقل تخفيف، العقاب على آل حمدان، ولكن موقفه يواجه رد فعل عنيفًا من الأفندى وزقلط الفتوة.

ويتساءل جبل : «أيعجبك هذا الطغيان يا جبلاوى؟ ! »

(= «هذه النغمة سائدة عبر القصة كلها تقريباً... نغمة التمرد والدهشة والحنق إزاء صمت الجبلاوى وإزاء ما يحدث فى حارته من ظلم وعسف وطغيان).

ويستمر «قدره» فتوة آل حمدان في اضطهادهم يسومهم صنوف العذاب، ويطارد ذات ليلة «دعبس» أحد أبناء الحى متوعداً إياه إلى أن يمسك به وينهال عليه بنبوته الغليظ بلا رحمة... ويرى جبل هذا المشهد فيحاول إثناء الفتوة عن بغيه بلا طائل، فلا يملك إلا أن يبطش به ليوقفه عن قتل دعبس المسكين، وينطرح «قدره» أرضًا بلا حراك.. ويعلم جبل أنه مات، مع أنه لم يكن يقصد قتله، ويهرب جبل من الحارة بأكملها قاصداً الصحراء.. بينما تثور ثائرة الفتوات وينزلون بالأهالى أشد ألوان الاضطهاد والعذاب.

ويسير جبل مبتعداً إلى أن يرى على البعد فى سوق المقطم منزلاً منعزلاً ينبعث منه نور فيقصده ويرحّب به صاحبه «البلقيطى» مروّض الحيات الذى يقيم فى الدار مع ابنتيه «شفيقة» و «سيدة» وكان جبل قد أسدى إلى الفتاتين معروفًا عندما سقى لهما الماء وكانتا غير قادرتين على ذلك وسط الجموع الكثيرة وأخبرتا جبل أن أباهما رجل كبير متفرغ لعمله لا يستطيع أن يذهب معهما لحمل الماء.

(= «ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من الناس يسقون ووجد دونهم امرأتين تذودان... » الآية)

ويقيم جبل مع البلقيطى الذى يعرف منه قصته ويتفق معه على أن يعلمه مهنة السحر وترويض الثعابين. ويتبادل جبل وشفيقة الاعجاب ويتم زواجهما.

ويتقن جبل المهنة ويقضى زمنًا مع البلقيطى يكتسب عيشه معه، ثم يعود خفيةً إلى الحارة ومعه زوجته ويقصد بيت حمدان كبير قومه فيرحب به. ويدرس الجميع كيف يمكن أن ينتقموا من الفتوات وينهوا حياة الذل والاضطهاد.

ويقص عليهم جبل حادثةً غريبة وقعت له، وهي أن شخصًا هائلاً كالجبل استوقفه في الظلام الحالك وهو يتجول فى الصحراء، وقال له بصوت غريب: «لا تخف، أنا جدك الجبلاوى»، وقال له : «أنا هنا» فحدق جبل بصره فى الظلام لكى يرى وجهه ولكنه لم ير شيئًا فقال له الجبلاوى لن تستطيع أن ترى وجهى فى الظلام.

(= «إشارة إلى تكليم الله تعالى لموسى فى طور سيناء وإلى طلب موسى لربه «أرنى أنظر إليك قال لن ترانى» الآية)

وبينما استمع آل حمدان إلى جبل وهو يقص عليهم القصة وهم مشدوهون متشككون، أكمل جبل قائلاً : إن الجبلاوى قال له : إنك رجل يعتمد عليك يا جبل. ولكنك نبذت حياتك المريحة حزنًا على ما أصاب قومك من اضطهاد، ولكن قومك هم قومى، ولهم حقوق فى وقفى لابد أن

يحصلوا عليها، ولما سأله جبل وكيف السبيل إلى ذلك؟ قال: بالقوة سوف تحطمون الظلم وتنالون حقوقكم، وتحيون حياة كريمة.. فصاح جبل: سنكون أقوياء، وباركه الجبلاوى وانصرف.

ويعلم الأفندى وفتواته بعودة جبل وينتشر سر مقابلة للجبلاوى، وتثور ثائرة الأفندى لأنه يحس في ذلك تهديداً لسلطته ونظارته للوقف إذا وقف الجميع خلف جبل مطالبين بحقوقهم.

وفجأة تنتشر فى بيوت الناس وبالذات الأفندى والفتوات ثعابين مخيفة ويسود الذعر بين الناس لدرجة أنهم يغادرون بيوتهم ويبقون في الخلاء من الذعر.. ثم يرجون جبل أن يتدخل لإنقاذهم من الحيات مستخدماً مهنته التى تعلمها، ويقبل جبل بشرط أن يكون الثمن هو كلمة شرف من الأفندى أن يحترم آل حمدان ويحفظ لهم كرامتهم وحقهم في الوقف، ويوافق الأفندى تحت ضغط الموقف، وسرعان ما يخلّصهم جبل من كل الثعابين السامة والخطيرة التى تملأ بيوتهم (= **دعاء موسى لله تعالى أن يكشف عن آل فرعون الرجز الذى حلّ بهم مقابل تعهدهم بأن يؤمنوا ، والثعابين فيها إشارة إلى تفوق موسى على سحرة فرعون يوم الزينة**)

ويقرر الأفندى وزقلط التخلص من كل آل حمدان حتى لا يطالبوا بحقهم فى الوقف، بينما يكون جبل وأهله قد دبروا خُطّة مضادة للقضاء على الفتوات قضاءً مبرماً، فقد صنعوا لهم كميناً فى دار حمدان حيث تركوا الباب مفتوحاً وحفروا حفرة عميقة في المدخل غطوها من الخارج بحيث ينخدع الفتوات ويسقطون فيها.. وهذا ما حدث فعلاً فقد سقطوا

جميعًا وعندئذ ألقوا عليهم المياه ليغرقوهم، والتراب ليخنقوهم وانهالوا كذلك عليهم بالهراوات ضربًا عنيفًا حتى يستأصلوا شأفتهم تمامًا (=« **غرق فرعون وآله ونجاة موسى وبنى إسرائيل** »)

ويستعطف الأفندى جبل حتى لا يلحقه أذىً هو الآخر ويتفق الجميع على أن يحصل آل حمدان على حقهم فى الوقف بالإنصاف.

ويقضى جبل على دعبس بخلع إحدى عينيه قصاصًا منه لأنه فقأ عين شخص آخر (= « **إشارة إلي القصاص الوارد في التوراة « وكتبنا عليهم فيها أن العين بالعين... » الآية**)

وهكذا يسود العدل والمساواة بين الناس زمن جبل وتنتهى قصته عند هذا الحد.

رفـــاعـــــة

ذهب جبل وأيامه السعيدة وعاد عصر الفتوات والقهر من جديد متمثلاً فى «زُنْقُل».. هكذا تحدث شافعى النجار إلى زوجته عَبْدَة وهما يفران من الحارة إلى مكان بعيد لكى تضع طفلها، حيث إن زنفل الطاغية يقتل كل رضيع في قوم جبل (**لقد جعل المؤلف السيدة مريم زوجة ليوسف النجار وليست خطيبةً له، ولا شك أن هذا أمر مقصود ومفهوم أيضًا فى إطار «السيناريو» الجديد الذى وضعه لتاريخ البشرية واستبعد فيه تمامًا كل أثر للمعجزات والخوارق.. لأنه لو جعلها بلا زوج أو مجرد خطيبة لن تستطيع تبرير حملها وولادتها إلا إذا أوحى بخطيئتها فيقع بذلك فى مطب؟ لعله لا يريده، ولكن ما الحيلة وقد وقع في المطب على كل حال..فنحن لا نعتقد أن السبب وراء ذلك سبب فنى بحت، لأن المؤلف كان بمقدوره أن يتجاوز هذه النقطة بأن يقدم شخصية مريم بعد وضعها للطفل صامتًا عن أى شيء آخر أو حتى لا يقدمها فى سيرة رفاعة، أما جَعْل يوسف النجار بالذات زوجًا لها وأنه الذى أنجب منها عيسى فقد ضرب به المؤلف أكثر من عصفور بحجر واحد : فقد أنكر عذرية السيدة مريم، وأنكر الميلاد المعجز للسيد المسيح، وتبنّى أقاويل اليهود في طعن شرف السيدة مريم ورميها بالزنا، وألغى من شخصية مريم الجانب الروحى العظيم الخاص بها هى حتى قبل ولادة المسيح من حيث إنها كانت عابدة صدّيقة مطهرة على نساء العالمين ومصطفاة عليهن ونزل بها إلي**

شخصية امرأة عادية وسمح لنفسه أن يصفها وصفًا لا يليق فى أحد المشاهد حين قال : « وضعت المرأة البقجة على الأرض وجلست عليها مفرّجةً ما بين فخذيها .. لتريح بطنها المنداحة »)

ويعود شافعى وعَبْدَه إلى الحارة – بعد سنوات وقد هدأت الحال فيها – ومعهما ابنهما رفاعة شابًا يافعًا.

ويشغف رفاعة بالقصص التى تروى على الربابة فى المقاهى عن الجبلاوى وأبنائه.. ويتحسس شاعر ضرير ملامح وجهه وكتفيه ذات ويوم ويقول : «مدهش ! إن له جمالاً مثل جمال الجبلاوى نفسه!» (= **الايحاء ببنوة السيد المسيح لله لأنه الوحيد الذى يشبهه)**

ويحاول شافعى أن يجعل ابنه يعمل معه فى دكان النجارة الذى افتتحه فى الحارة، ولكن رفاعة لا يركّز في هذا العمل فهو مشغول بقصة الجبلاوى وما يرويه شاعر الربابة، وعلى مقربة من مسكن شافعى وعَبْدَه تسكن بغيّ اسمها ياسمين تشرع فى مغازلة وإغراء رفاعة الذى لا يستجيب لها، وفى زيارة للراوى فى منزله يلفت نظر رفاعة رسم بالزيت على الحائط (**شيء غير معروف ولا شائع فى البيوت المصرية، باستثناء رسوم الزينة الشعبية على جدران البيوت بمناسبة الحج مثلاً –وهذا الرسم على الحائط داخل البيت هنا ليخدم غرضًا فنيًا هو نقل جوّ الكنائس بصورها الداخلية التى تمثل الأقانيم المسيحية والملائكة والعذراء والطفل والقديسين وما إلى ذلك)**

وتمثل الصورة شخصًا هائلاً تبدو بجانبه بيوت الجارة مثل لعب الأطفال، ويسأل رفاعة: صورة من هذه؟ فيأتيه الجواب : الجبلاوى !

فيسأل : وهل رآه من أحد؟ فيجيبه «جوّاد» الراوى أو الشاعر : لا.. لم يره أحد من جيلنا. وحتى جبل نفسه لم يستطع أن يتبين ملامحه فى الظلام عندما قابله فى الصحراء، ولكن الفنان رسمه حسب أوصافه في الحكايات.

ويتساءل رفاعة فى أسى : لماذا أوصد بابه فى وجه أبنائه؟ وينصحه الشاعر بقوله: إنه ما دام الجبلاوى لا يفكر فينا فيجب ألا نفكر نحن فيه أيضًا (!) ويعلم رفاعة أن زوجة الراوى «أم بخاطرها» تعمل فى السحر وطرد الأرواح الشريرة وتقول له: إن كل إنسان له روح خاصة تحركه وأن كل روح تتطلب معاملة خاصة، وأن الإنسان يشبه روحه المسيطرة فالأرواح الشريرة تتطلب بخورًا خاصًا ونغمات خاصة لطردها. فيهتم رفاعة بذلك اهتمامًا شديدًا، ويطلب منها أن تعلّمه كل ما تعرفه من ذلك وتوافق على أن يوافيها كلما استطاع لكى تلقنه مهنتها على شرط ألا يغضب أبوه من ذلك.

ويطلب رفاعة من أبيه أن يُحضر من يرسم لهم صورة زيتية للجبلاوى على الحائط فى منزلهم كتلك التى شاهدها عند «جواد» فيقول له أبوه إنهم أحوج إلى المال الذى سينفقه على هذه الصورة، ثم إنها أوهام وخيالات !

وكم شهد رفاعة ليالى مع أم بخاطرها يتابع ويراقب دقّ الطبول وإخضاع الأرواح الشريرة، وكان المرضي يساقون إلى بيتها ضعافًا وفي حالة فقدان وعى، وبعضهم كان يُحمل حملاً أو يقيّد ويوضع فى الأصفاد نظرًا لتوحشه وكان لكل حالة ما يناسبها من البخور حيث

يحرق البخور وتضرب الايقاعات المطلوبة.

ويحس رفاعة إن هذا هو العلم الذى يريده لكى يخلّص الحارة من ناظر الوقف والفتوات وأمثالهم، ولا سيما بعد أن اكتشف أنه يمكن إخضاع وتطهير النفوس الشريرة عن طريق أشياء طاهرة ونقية وطيبة مثل الروائح المعطرة والنغمات الجميلة.

وصعد رفاعة إلى أعلى السطح وتأمل البيت الكبير قرب الفجر وراودته الخواطر : أين أنت يا جبلاوى؟ لماذا لا تظهر ولو للحظه واحدة؟ ألا تعلم أن كلمةً واحدةً منك تغير حال الحارة بأكملها؟.

وأبوه يعنّفه كلما سمع منه هذه الخواطر ويحثه على أن يعمل عملاً جاداً بدلاً من تضييع وقته هكذا.

وتزور الست زكية زوجة «خنفس» الفتوة عبده أم رفاعة وتقدم لها ابنتها عائشة، وتفاتح عبده وشافعى ابنهما بشأن هذا الشرف الكبير.. ويحاولان إقناعه بأن هذه فرصة عظيمة للوصول بعد ذلك إلى منزل الناظر - الوصىّ على تركة بنى جبل - ومن يدرى لعله يرث هذا المنصب يومًا ما..

ويحتج رفاعة : كيف أصاهر هذا الشيطان فى الوقت الذى ينصبّ فيه كل اهتمامى على طرد الشياطين؟!

ويجن جنون أبيه ويتهمه بأنه يريد أن يتحول إلى ساحر وبأنه كالبنات وبأن الحارة كلها لا حظت نعومته وطراوته (هكذا !)

ويعجب شافعى من رفض ابنه لفكرة الزواج ويحاول إثناءه عن

أفكاره باللين وبالشدة، بينما يقرر رفاعة في نفسه أن هذا البيت ليس هو المكان الذى يبحث عنه.. إنه أصبح كالسجن ولا بد له من مكان آخر.

ويفتقد شافعى ابنه فى دكان النجارة بعد ذلك فلا يجده ويسأل عنه جوّاد فى قهوة شلضم فيخبره بأنه لم يره.. ويستبد القلق بعبده عندما يعود شافعى وليس معه رفاعة، وتنصحه أن يبحث عنه عند ياسمين - البغيّ وتفاجأ ياسمين بشافعى، ويسألها عن رفاعة، فتندهش وتقول له : لماذا يأتى هنا؟ وينصرف ويسمع عند انصرافه حديثًا من داخل المسكن تقول فيه ياسمين لرفيقها: إنهم يقلقون عليه كما لو كان بنتًا!

ويذهب شافعى وعبدة إلى سوق المقطم حيث كانوا يعيشون لمدة ٢٠ سنة عندما هربوا من الحارة قبيل ولادة رفاعة، ويسألون جيرانهم القدامى ومعارفهم عنه ولكن بلا طائل.

ويظهر رفاعة فجأة بعد فترة وقد أصابه الضعف والهزال.. ويخبر الجميع أنه كان فى الصحراء لأنه أحس أنه يريد أن يخلو إلى نفسه وأنه لم يخرجه من الصحراء إلا البحث عن طعام (= **«حسب العقيدة المسيحية، لم يكن المسيح قد أكل شيئًا مدة الـ ٤٠ يومًا وليلة التى قضاها فى البرية، والتى تسمى «خلوة البرية» والتى رمز لها الكاتب هنا بخلوة رفاعة فى الصحراء**) وتخبرهم أم بخاطرها أن رفاعة نمط مختلف عن باقى الناس وليس هناك من يماثله فى الحارة كلها، وأنه لم يكن من الحكمة محاولة إجباره على شيء لا يريده.

(لا يفوتنا كذلك ملاحظة كون رفاعة ينتسب إلى هذه الحارة التى

يغرق فيها أهلها في الشرور والآثام والظلم والمادية، وهو ما يشير إلى مجيء المسيح عليه السلام من الناصرة : «لم يصدق نثنائيل هذا الخبر، فقد ظن أن المسيح لا يمكن أن يجيء من الناصرة، إما لحقارتها، أو لأن صيتها كان رديئًا بسبب شرور أهلها » سيرة المسيح ص٩٦)

وعاد رفاعة للعمل في دكان والده شافعي النجار وكان يهاجم العنف فى كل مناقشاته مع زبائن المحل ويقول لهم إنه «العنف» لا يحل أى مشكلة، وأن جبل لم يلجأ للعنف إلا للدفاع عن النفس .

وذات يوم يقول رفاعة لوالده إن هناك شيئًا حدث ولا يستطيع كتمانه أكثر من ذلك ويخبره إن كان في الصحراء بالقرب من البيت الكبير وسمع فى الظلام صوت الجبلاوى يقول له إن جبل أدّى رسالته وفعل ما عليه، ولكن الأمور عادت لتصبح أسوأ مما كانت.. فنادى رفاعة : «جدّى.. لقد مات جبل.. وحل آخرون محله.. فامدد يدك إلينا وساعدنا.. فجاءه الرد من الجبلاوى : كيف يطلب الحفيد من الجد أن يعمل، إنما يعمل الابن المحبوب. (= **بنوة رفاعة للجبلاوى هنا ليست كالآخرين، لأنه ابنه «المحبوب» وهي تقابل العقيدة النصرانية -ابنه المولود له- ولاحظ أيضًا ما سبق من أنه قيل عند قدومه للحارة إنه يشبه الجبلاوى كما لم يشبهه أحد اخر، وهو إيحاء بنفس المعنى. قارن: «لأن المسيح هو كلمة الله المتجسّد، المولود الوحيد الذى لا يكون إلا على صورة المولود منه، الذى وصفه الانجيل بأنه [محبة] »- سيرة المسيح ص٩)**

(ويقلق شافعى وعبده مما قاله ابنهما رفاعة ويخشيان أن يبلغ الأمر لسكان الحارة، وتحدث ضجة ذات يوم عندما يتجمع الأهالى ويطالبون

بطرد ياسمين البغيّ من الحارة، فيدافع رفاعة عنها ويقول إن المسئول هو «بيومى» -الفتوة- الذى أغواها، ويطلب منهم أن يرحموا ضعفها (= «**من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر**») ثم يعرض أن يتزوجها إنقاذاً لها من بين أيديهم، ويصرّح رفاعة ليلة زفافه بأنه شرب بعض الخمر وأنه جرّب الحشيش، ولكنه لم يجد لديه ميلاً إلى شربه (**هكذا يصوّر السيد المسيح عليه السلام!**)

ويدور حوار بينهما ليلة العرس يتضح منه أن رفاعة زاهد فى متاع الدنيا، وأنه لم يقرب عروسه، مما أثار غيظها وحنقها وكان كل حديثه معها عن وجوب تطهير نفس الإنسان من الأرواح الشريرة حتى يحصل على السعادة الحقيقية ! (= «**ايحاء بالعجز الجنسى للسيد المسيح.. مما يعنى أن زهده تحصيل حاصل، وهذا -فضلاً عن أنه سوء أدب فى حق نبىّ كريم- هو قلب أيضًا للحقائق التاريخية وطبيعة الأشياء لأن المسيح لو تزوج لكان كأى رجل، ولكنه -لأنه لم يتزوج- لم يمارس هذه الأمور، أما تصويره هكذا وهو متزوج.. معناه أنه عاجز من هذه الناحية، وبالتالى يكون كل ما دعا إليه من العفة والفضيلة مما يدخل فى التعبير العامى «قُصرْ ديل» !، أضف إلى ذلك اتهام الكثيرين له فى سياق الرواية بأنه كالنساء وأن فيه نعومة وطراوة، والايحاء بأن تصرّفه هذا يبرّر ما حدث بعد ذلك من خيانة زوجته له وذهابها إلى فراش غيره!**) .

ويتخذ رفاعة له بيتاً في حي آخر ويأتيه الناس - ولا سيما الفقراء - طلباً للعلاج والهداية، ويتوب الكثيرون على يديه من غواياتهم

وضلالاتهم.. ويصبح العصبيّ هاديء الطباع، وهكذا.

ويتخذ من مرضاه أربعة يعتبرهم أصدقاءه **(لعلهم يرمزون إلى الحواريين الأربعة أصحاب الأناجيل في «العهد الجديد»)**. بعد أن تحولوا إلى أناس أسوياء ذوي خلق حسن وطبيعة طيبة، وكانوا من قبل ذلك أشراراً، فقد كان «زكي» متشرداً صعلوكاً، و«حسين» حشاشاً مدمناً، و«على» بلطجي قاسي القلب، و«كريم» قوّاداً !.

وتخون ياسمين زوجها رفاعة مع «بيومي» الفتوة، بينما ينهمك رفاعة في علاج الناس وتخليصهم من أرواحهم الشريرة ويطلب من تلاميذه الأربعة أن يمارسوا نفس العمل ويبلّغوا هذه الرسالة لكل الناس لأنه لايستطيع ذلك وحده.

وفي لقائهما سراً في بيته، يتحدث بيومي مع ياسمين عن دعوة رفاعة ويخشى بيومي أن يكون هدف رفاعة استعادة الوقف وتسليمه من جديد إلى قوم جبل.. ويسخر من احتمال ادّعاء رفاعة أنه سمع ذلك من الجبلاوي نفسه.. ويعلن في نهاية الحوار - مؤكداً - أن «الجبلاوي مات.. أو هو كالميت» !

وتحدث مواجهة بين رفاعة وكل من خنفس وبيومي بعد أن يستبد القلق بإيهاب - ناظر الوقف - وينذرانه بالكف عما يفعله من استقبال الناس وعلاجهم، وإلاّ فالويل له. وينصح الجميع (عبده وشافعي وياسمين والأصدقاء الأربعة) رفاعة بأن يهرب من الحارة كلها لأن الفتوات يتربصون به ليقتلوه.

وتخونه ياسمين وتبلغ بيومي بخطة الهرب، وفي اللحظة المقدّرة يهجم عليهم الفتوات فيهرب أصدقاء رفاعة، (خيانة ياسمين لرفاعة بسبب ارتباطها العاطفي والجسدي ببيومي الفتوة مما لاتطيق الإستغناء عنه يرمز لخيانة يهوذا الاسخريوطي للسيد المسيح مقابل المال: «يهوذا الذي باع نفسه، كما باع سيده بثلاثين من الفضة، مع أن المسيح جاهد ليربيه في الصلاح ويقودة إلى الخلاص» سيرة المسيح ص٤٧٢، «وفيما هو يتكلم إذا يهوذا، أحد الإثني عشر، قد جاء ومعه جمع كثير بسيوف وعصي من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب، والذي أسلمه أعطاهم علامة قائلاً: «الذي أقبّله هو هو، أمسكوه» متى ٢٦: ٤٧-٥٤»).

ثم يسوقه الفتوات عبر الحارة ويمرون على البيت الكبير، ويفكر رفاعة: هل يحسّ الجبلاوي بمعاناته الآن؟، وينادي: جبلاوي ! ولا يرد عليه أحد، ثم يقتلونه بهراواتهم. **(قارن: في العقيدة المسيحية أن المسيح استنقذ الله قبل صلبه: «وفي الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلاً: إلهي.. إلهي.. لماذا تركتني؟ » انجيل مرقس ١٥).**

ويستخرج أصدقاؤه جثته من المكان الذي دفنها فيه الفتوات، ليدفنوها في إحدى المقابر، ثم يقتلون ياسمين لخيانتها ويشرعون في مواصلة رسالة رفاعة بتعليم الناس أسرار مهنته، وتناقل الناس قصة رفاعة، وزعم بعضهم أن الجبلاوي نفسه هو الذي استخرجه وحمله بعيداً إلى حيث قصره ووضعه تحت ثرى حديقته الغنّاء **(إشارة إلى رفع السيدالمسيح إلى السماء).**

ويرى بعض تلاميذ رفاعة ضرورة الإنتقام من الفتوات الجبابرة.. ويرى آخرون أن في ذلك مخالفة لتعاليم رفاعة التي تنبذ العنف. ثم تبدأ موجة من الإنتقام ضد كل الفتوات حيث يجد الناس جثثهم واحداً وراء الآخر أمام منازلهم. وتحدث مواجهة بين الفتوات وأنصار رفاعة وتنتهى بانتصار (الرفاعيين) ويتم اتفاق بين (علي) زعيمهم وناظر الوقف بمقتضاه يتم الإعتراف بهم وبأن لهم نصيباً من التركة مثل قوم جبل.

ويعود كل الذين فروا من الحارة في فترة الإرهاب والإضطهاد ومنهم شافعي وعبده، بينما يختلف أتباع رفاعه (**= اختلاف فرق المسيحية**) فمنهم من يرى أن رسالته مداواة المرضى والرحمة، ومنهم من يرى غير ذلك، ويتطرف بعضهم فيمتنع عن الزواج اقتداءاً برفاعة (**فكرة الرهبنة – ومع ذلك فلنا هنا تعليق صغير، من الذي قال إن رفاعة امتنع عن الزواج؟! لو كان المؤلف قدّمه عَزَباً طوال حياته لما كان هناك خلاف، ولكنه قدمه في أسوأ صورة يمكن أن يوضع فيها رجل: صورة الديوث أو العنين الذي يدفع امرأته إلى أحضان غيره ولايكترث بذلك – وحاشا لله أن يكون السيد المسيح عليه السلام كذلك، إنه الرسول الكريم الذي قال الله تعالى في حقه: (إذ قالت الملائكة يامريم إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم وجيهاً في الدنيا والآخرة ومن المقربين. ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين) صدق الله العظيم، والسلام على عيسى يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حياً).**

قــاســـم

وتمر أجيال يسيطر فيها نظار الوقف - واحداً وراء الآخر - على الوقف ويأخذون خيراته لأنفسهم ويسومون الناس الظلم والإضطهاد مستعينين بالفتوات.

وبينما يعيش قوم جبل (= **اليهود**) في الحيّ الخاص بهم، وكذلك أتباع رفاعة (= **النصارى**) في حَيِّهم، ينشأ قاسم في أفقر الأحياء وأكثرها بؤساً «حَيّ الجرابيع».

وقاسم غلام يتيم يكفله عمه «زكريا» بائع البطاطا الفقير الذي لم يرزق بابنه «حسن» إلا بعد أن كفل ابن أخيه، ولذلك اعتبر وجوده معه فألاً حسناً وبركة.

ويشبّ قاسم على حكايات الجبلاوي وأدهم وجبل ورفاعة وتنطبع هذه الأحداث في ذاكرته، ويذهب به عمه مرة إلى العجوز يحيى بائع الأحجبة والمسابح والبخور الذي يتوسم فيه خيراً، ويحيى هذا من أتباع رفاعة، ولكنه هجر حيّ رفاعة بسبب بطش وظلم الفتوات. **(نلاحظ أن بعض الشخصيات في الرواية تؤدي أكثر من دور من الناحية الرمزية - فكما رأينا «ياسمين» ترمز مرة لمريم المجدلية ثم في النهاية ليهوذا الخائن - نرى هنا «العجوز يحيي» يرمز لبحيرى الراهب الذي رأى الرسول صغيراً وتنبأ بنبوته - ثم يرمز بعد فترة لورقة بن نوفل - ثم يقوم بعد ذلك بدور أحد الصحابة، وهكذا).**

ويكبر حسن فيرى قاسم أنه – أي حسن – أحق منه بمصاحبة والده في جولاته على عربة البطاطا **(هذه الجولات ترمز للرحلات التجارية التي اصطحب فيها أبو طالب الرسول ﷺ)**.

ويتفرغ قاسم لرعي الأغنام وهي المهنة التي أحبها حباً جماً وجعلته يقضي أوقاته كلها تقريباً في الصحراء يتأمل الطبيعة ويراقب الخراف في حياتها الفطرية.. وكذلك جعلته هذه المهنة يكثر من زيارة **العجوز يحيى (في سيرة الرسول ﷺ أنه لم يلجأ إلى ورقة – أو بمعنى أصح لم تنصحه خديجة رضي الله عنها باللجوء إليه لاستشارته – إلا بعد أن نزل عليه جبريل في الغار، ولكن المؤلف يجعل من يمثل شخصية ورقة في الرواية – وهو «يحيى» هو المعلّم والأستاذ الذي يتلقى عنه قاسم منذ صغره النصح والإرشاد والعلم وأخبار الأولين – مما يوحي بأن الرسول ﷺ إنما أخذ عن علماء النصارى ما جاء به بعد ذلك، وهي دعوى متهافتة ساذجة من دعاوي المستشرقين المتعصبين وأعداء الإسلام، سبقت الإشارة إليها وتفنيدها في القرآن الكريم نفسه في غير موضع، وكان أولى بها أهل الكتاب المعاصرون للرسول نفسه ولكنهم لم يدعّوها، والذي ادعاها منهم لم يستطع الصمود بها أمام حجج القرآن ومنطقه القوي – وهكذا يتحيز المؤلف في قصته هذه التي تعتبر تفسيراً إلحادياً (أي يستبعد تدخل السماء تماماً) – للتاريخ الديني للبشرية إلى ادعاءات أعداء الإسلام ضده. لقد أوحى عبد الرحمن الشرقاوي في كتابه (محمد رسول الحرية) الذي تصدرت الغلاف في إحدى طبعاته عبارة «إنما أنا بشر مثلكم» محذوفاً منها (قل) و«يُوحى إليّ») اللتان تثبتان الوحي، بحيث يبدو الأمر وكأنه دين بشري**

خالص بالتركيز على بشرية محمد - نقول أوحى بأن القرآن كان من خواطر محمد ووحي نفسه وكانت بدايته حلماً ومناماً، ويقول الشرقاوي بالنص:

«ولكنه في تلك الليلة من رمضان، أغفى قليلاً، فنام.. فرأى من يعرض عليه كتاباً ويطلب منه أن يقرأ.. فسأله «ماذا أقرأ» فقال: «اقرأ باسم ربك الذي خلق.. خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علم بالقلم، علم الإنسان مالم يعلم».. وعندما استيقظ من نومه كان يحفظ ما سمعه في النوم. وهو يستوضح حلمه فيما بينه وبين نفسه إذا به وهو بين اليقظة والنوم كأنه يسمع صوتاً من بعيد يقول له: «يامحمد.. أنت رسول الله وأنا جبريل..» طبعة دار الهلال ص٦٥. وإذن فالرسالة المحمدية - في رأي الشرقاوي - لم تكن إلا حلماً رآه محمد في المنام كالأصوات التي كانت تسمعها جان دارك مثلاً ويصفها علماء النفس بأنها «هلاوس سمعية وبصرية!»..

ولقد استطردنا كل هذا مع كلام الشرقاوي لكي نقول هنا - ونسجل للأستاذ محفوظ - إنه ذهب شوطاً أبعد من هذا بكثير.. فإن الرسالة التي جاء بها محمد ليست حتى من عند نفسه هو، بل تلقاها على يد علماء أهل الكتاب، وكأني بالأستاذ يكتب روايته هذه وأمامه على المكتب دعاوي المستشرقين الحاقدين وافتراءاتهم ضد الإسلام يحشو بها كتابه حشواً، وستأتي ملاحظات أخرى تثبت هذا الإتجاه الذي سار عليه المؤلف، مثل وَصْمه قاسم بأنه مزواج وأنه زِير نساء، إلى غير ذلك.. والله غالب على أمره).

وفي أحاديثه مع العجوز يحيى يسأل قاسم: هل يمكنني أن أصبح مثل رفاعة؟ فيسخر منه قائلاً: أنت.. مثل رفاعة؟! كيف وأنت مولع بالنساء وتتصيدهن في الصحراء عندما تغيب الشمس؟! **(هكذا)**.. وتستبد الرغبة بقاسم فى أن يصبح مثل «جبل» و«رفاعة» **(لاحظ أن سيدنا رسول الله ﷺ لم يفكر في أمر الرسالة أو النبوة مطلقاً طوال ٤٠ عاماً عاشها قبل البعثة، وإنما جاءته من عند الله تبارك وتعالى - وكل ما كان فيه من عفة وحسن خلق وصدق وأمانة وميل إلى الخلوة والتأمل فقد كان من قبيل إعداد الله له ليكون رسولاً (الله أعلم حيث يجعل رسالته)، أما هو فكان ينظر في حال خلوته وتأمله (قبل البعثة) من وجهة نظر خاصة هي تفضيله للإنعزال عن الحياة الجاهلية وحبه للتأمل، وهي طبيعة خاصة له مثل باقي المتحنّفين في عصره، والدليل أن مسلكه هذا لم يكن مثار إنكار أو دهشة من أحد - أما في هذه الرواية فيجعله المؤلف يسمع باهتمام وشغف أخبار السابقين وتملك عليه نفسه ويصبو ويتطلع إلى أن يكون مثلهم، مما يوحي بأنه كانت لديه طموحات شخصية فاختلق أمر الرسالة اختلاقاً ليكون نبياً كالأنبياالسابقين).**

وتقع حادثة تعلى من شأن قاسم وتجلب له احترام الفتوات والناس، وذلك عندما صاح أحد الناس - فنجري - وهو منجّد كان خارجاً لتوه من بيت أحد السادة الكبار بعد أن قبض مبلغاً ضخماً من المال نظير عمل طويل وشاق.. صاح بأن نقوده سرقت منه، والتفّ الناس حوله، وخرج الفتوات كل من منطقته، واتهم كل منهم الآخر بأن اللص من حَيِّه. ثم رأوا تفتيش كل الأحياء، ولكن فتوة كل حيّ وقف متنمراً يدافع

عن كرامة حيه، وكادوا يقتتلون وتحدث مجزرة، إلى أن اقترح عليهم قاسم أن يطفئوا الأنوار في كل الأحياء وعلى من سرق النقود أن يضعها في الظلام دون أن يفتضح أمره أو أمر الحي الذي هو منه.. ونفذوا اقتراحه وأضاءوا الأنوار فإذا بالمحفظة ملقاة فأخذها صاحبها مسرعاً.. وانتهت المشكلة **(هذا يقابل قصة النزاع على وضع الحجر الأسود عند تجديد الكعبة في شباب رسول الله ﷺ عندما أنقذ الموقف بفكرة الثوب الذي يمسك كل واحد من أشراف قريش طرفاً منه إلى أن وضعه الرسول ﷺ بيديه الشريفتين في مكانه).**

ويحدث تقارب بين قاسم والسيدة «قمر» التي يرعى لها غنمها.. وتفاتحه سكينة خادمتها في أمر زواجه منها. ويستبعد عمه زكريا وزوجته أن يتم هذا الزواج نظراً للفارق الإجتماعي.. ويستنكر «عويس» – عم قمر – أيضاً هذه الزيجة لما فيها من تنازل كبير من جانب ابنة أخيه، إلا أن قمر تصرّ على ذلك، ويتم الزواج بالفعل.

وفي ليلة العرس يشرب الجميع الخمر بما فيهم قاسم الذي يتعاطى الحشيش أيضاً! **(وهكذا يصوّر خاتم النبيين وأشرف المرسلين ﷺ والذي أكبره وأجلّ شخصيته الكريمة الكثيرون من غير المسلمين من باب الإنصاف والموضوعية.. فقال: «سباستيان شارلتي»: «لقد مات الشرق بموت دارا وعادت إليه الحياة على يد محمد»، وقال توماس كارلايل: «أحبّ محمداً لبراءة طبعة من الرياء والتصنع، ماكان محمد بعابث قط، ولا شاب قوله شائبة لغو ولهو.. ويزعم المتعصبون أن محمداً لم يكن يريد بدعوته غير الشهرة الشخصية والجاه والسلطان..**

كلا وأيم الله لقد انطلقت من فؤاد ذلك الرجل الكبير النفس والمملوء رحمةً وبراً وحناناً وخيراً ونوراً وحكمة، أفكار غير الطمع الدنيوي وأهداف سامية، غير طلب الجاه والسلطان..

فحبذا محمد من رجل متقشف، خشن الملبس والمأكل، مجتهد في الله، دائب في نشر دين الله... »

وقال برنارد شو: «إنني أعتقد أن رجلاً كمحمد لو تسلّم زمام الحكم في العالم بأجمعه لتم النجاح في حكمه، ولقاده إلى الخير وحل مشكلاته على وجه يكفل السلام والطمأنينة والسعادة المنشودة».

وقال المستر كاين تلر: «إن الغلو في الحرية والتهتك وراء الشهوات البهيمية لا تجيزه الشريعة الإسلامية، والدين الإسلامي هو الدين الذي يعم به النظام بين الورى، ويقمع النفس عن الهوى، ويحرم إراقة الدماء والقسوة في معاملة الحيوان والأرقاء، ويوصي بالإنسانية، ويحض على الخير والإخوة، ويقول بالاعتدال في تعدد الزوجات وكبح جماح الشهوات».

وقال لامرتين: «لقد كان محمد فيلسوفاً وخطيباً ومشرعاً وقائداً، وفاتح فكر، وناشر عقائد تتفق مع الذهن، ومنشيء عشرين دولة في الأرض، وفاتح دولة في السماء من الناحية الروحية، أي رجل قيس بجميع هذه المقاييس التي وضعت لوزن العظمة الإنسانية كان أعظم منه؟!»

وقال غاندي: «لقد كان محمد نبياً عظيماً.. كان النبي العظيم

فقيراً زاهداً في متاع الدنيا في الوقت الذي كان يستطيع فيه أن يكون ثرياً كبيراً لو أراد..

لقد ذرفت الدموع وأنا أقرأ تاريخ ذلك الرجل العظيم، إذ كيف يستطيع باحث عن الحقيقة مثلي، أن لايطأطيء الرأس أمام هذه الشخصية التي لم تعمل إلا من أجل مصلحة البشرية كلها »*.

ولكن ما قيمة شهادة هؤلاء جميعاً - وهم ليسوا مسلمين وليسوا من «المساطيل الذين لايفارقون جلسات الحشيش» - في حق محمد، مادام نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم السبيجلي أحمد الباشا، المولود بحي الجمالية في ١١ ديسمبر سنة ١٩١١ والفائز بجائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٨٨ عن روايته «أولاد حارتنا» يرى غير هذا ؟!!!)

المهم، يعيش الزوجان قاسم وقمر في هناءة وسرور، وبعد فترة يكتسب قاسم ثقة عم زوجته فيعمل في مكتبه ويدير أموال زوجته.. وتكتمل الفرحة عندما يرزق قاسم وقمر بمولودتهما الأولى (إحسان).

ويصيب القلق قمر بسبب خروج قاسم إلى الصحراء في الليل والهموم التي بدأت تساوره. ويتأخر ذات ليلة إلى قرب الفجر، فيستبد بها القلق وترسل في طلب عمه «زكريا» وابنه «حسن»، وصديقه «صادق» ليبحثوا عنه فيجدونه بعد بحث وتعب مغشياً عليه في كوخ العجوز يحيى، ويعلمون الأمر منه بعد أن أفاق في بيته بعد ذلك.

---

* يمكن لمن أراد المزيد من أقوال المفكرين والأدباء والساسة والزعماء في حق رسول الله ﷺ الرجوع إلى كتاب الدكتور عز الدين فراج «نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي» دار الفكر العربي. القاهرة. بدون تاريخ.

وقد أخبر زوجته أولاً بالسر لأنها أول شخص يثق فيه، فأخبرها أن شخصاً غريباً ناداه وهو في خلوته بالصحراء وأبلغه أنه أحد خدم الجبلاوي واسمه «قنديل»، وقال له إن الجبلاوي يعرف كل شيء.. وإنه اختاره هو – أي قاسم – بسبب حكمته يوم السرقة، وبسبب ولائه لأسرته، وأنه يبلغه أن كل أهل الحارة أولاده سواءً بسواء، وأن الوقف هو تركتهم جميعاً بالتساوي، وأن الفتوات هم شر يجب أن يزول وينتهي، وأن الحارة يجب أن تكون امتداداً للبيت الكبير.. ولما سأله قاسم: ولماذا يبلغني أنا بالذات بكل هذا؟، أجابه قائلاً: لأنك أنت الذي ستفعل كل هذا..

وبالرغم من حب قمر لقاسم وثقتها فيه ويقينها من أنه رجل صادق وأمين، إلا أنها تحاول التأكد من أن الذي رآه وسمعه حقيقة وليس حلماً، فتعيد عليه السؤال تلو السؤال: ألم يكن حلماً؟.. لقد وجدوك مغشياً عليك.. هل أنت على يقين إنك لم تشرب الحشيش ولم تختلط عليك الأمور؟ (**= مرة أخرى، التركيز على أن الذي قاله إما أن يكون مناماً أو حدث له تحت تأثير الحشيش!**).

ولكنه يؤكد لها أن الذي حدث كان حقيقة.. وتتفاوت مواقف من حوله حينما يعلمون بالأمر ويقدّرون عواقبه، فيؤيده ويصدقه تماماً صديقه «صادق» وابن عمه «حسن» على حين يحاول إثناءه عن ذلك بكل ترغيب وترهيب ممكن كل من عم زوجته «عويس» وعمه «زكريا» ويحذران من أنه لن يقف معه أحد إذا تصدى له الكبار الأقوياء والفتوات بهراواتهم ونبابيتهم، بينما لايشغل بال زوجته قمر سوى الخوف عليه من مغبة هذا

الأمر.

ويصرّ قاسم على تنفيذ وصية جده الأكبر الجبلاوي، وفي زيارة إلى العجوز يحيي ومعه «صادق» و«حسن»، يسأله يحيي: ما الذي ستتركه للذين يتبعونك؟ فيجيب قاسم: «إذا نصرني الله، فإن الحارة لن تحتاج إلى أي شخص آخر بعدي» (**أولاً: ننبه إلى أن ذكر الله تعالى في ثنايا الحوار من قبيل «إن شاء الله» و«يفعل الله ما يريد» و«إذا نصرني الله» إلخ، تدخل ضمن الإطار الإيهامي الذي وضعه المؤلف لنقل جو الرواية وإضفاء المسحة الواقعية عليها، ولا تعني أكثر من ذلك - وثانياً: يراد بهذه الجملة «إن الحارة لن تحتاج إلى أي شخص آخر بعدي» تسجيل المقولة الإسلامية بأن محمداً ﷺ خاتم النبيين لمحاولة دحضها فيما بعد حينما يأتي عرفه «العلم المادي الملحد» كاستجابة لحاجة جديدة للمجتمع البشرى، مما يدخل فى النغمة المكررة -النشاز- التى تفتعل تناقضًا بين الإسلام والعلم وضرورة غياب أحدهما إذا وُجد الآخر**)

ثم يتعاطون جميعًا الحشيش (قاسم وصادق وحسن والعجوز يحى) فى هذه الجلسة وتدور رءوسهم، ويعود كل منهم إلي منزله تحت تأثير هذا المخدّر (هكذا !)

وتواتى قاسم فكرة أن ينشئوا ناديًا رياضيًا خلف منزله وينضم إليه فقراء الحى بحيث يبنى فيه الجميع أجسامهم بممارسة الرياضة من رفع أثقال وخلافه.. ومعهم قاسم نفسه وصادق وحسن (= **«فكرة الشيوعيين بأن الإسلام كان ثورة البروليتاريا ضد البرجوازية، ولكن**

ماذا يقولون في الأثرياء الذين انضموا للأسلام وساندوه وهم كثيرون؟!)

ويتفقون على أن يظل سرهم طيّ الكتمان : أى تنفيذ رغبة الجبلاوى، إلا أن أحد الأتباع «عجرمة» يبوح بالسر فى الحارة ذات يوم، وهو تحت تأثير الخمر، فيلعن قاسم الخمر وما تفعله بالإنسان **(= ايحاء بأن تحريم الإسلام للخمر اقتناع شخصى من محمد ﷺ وليس وحيًا إلهيًا - وهكذا يعاد تفسير كل مبادىء الإسلام وتعاليمه على أساس مادي بحت)**.

ولكنهم يتفقون على الذهاب إلى محام من باب الاحتياط بحيث إذا حدثت مواجهة بينهم وبين ناظر الوقف والفتوات يمكنهم رفع قضية للمطالبة بالتنفيذ العادل للوصية وتوزيع ريع الوقف بالمساواة، ويذهبون بالفعل إلى «الشنافرى» المحامى الشرعى الذى يقبل القضية -لفرط دهشتهم- ويتناول مقدم الأتعاب. ويظهر بعد ذلك سر موافقته السريعة والسهلة عندما يعلمون أنه وشى بهم إلى ناظر الوقف وفتواته !

وتحدث مواجهة عنيفة بين قاسم والناظر وبعض الفتوات حيث يضربونه ويهينونه وينذرونه يالقتل إن استمر فيما هو فيه من العزم على تنفيذ رغبة الجبلاوى لكى يسود العدل والمساواة.

وتبدأ فترة من الاضطهاد لأتباعه، بينما لا يستطيع هو أن يغادر منزله. وتأتيه الأخبار أن حيّ جبل وحيّ رفاعة يتداولون خبره مكذبين له، ويقول فى حسرة: «لماذا يقولون إننى كاذب مع أن منهم جبل الذى كلّم الجبلاوى، ورفاعة الذى سمع صوته؟ لماذا يتهموننى بالكذب فى

حين كان الأولى بهم - من دون الناس جميعًا - أن يكونوا أول من يؤمن بى ويؤيدنى؟» **(إشارة واضحة إلى موقف أهل الكتاب من رسالة سيدنا محمد ﷺ ودعوته)**

ويتصاعد الاضطهاد ويصل إلى درجة قتل بعض أتباع قاسم مثل «شعبان» وسط خوف الناس وذعرهم، ويصل قاسم مع أصحابه إلى قرار البعد عن الحارة والهجرة إلى الصحراء حتى يستكملوا بناء قوتهم -كما فعل جبل من قبل - ثم يعودوا بعد ذلك

(= إشارة إلى الهجرتين، الأولى إلى الحبشة فراراً من الاضطهاد، والثانية إلى يثرب حيث بناء الدولة)

ثم تموت قمر بعد مرض ومعاناة ويسيطر على قاسم حزن عظيم، ويأتيه أصحابه المهاجرون فيقابلونه سراً فى المقابر لكى يقدموا له واجب العزاء. وبوفاة زوجته الغنية ذات النسب والشرف يفقد قاسم جزءًا كبيراً من الموانع الأدبية التى كانت تحول بين أعدائه وقتله أو التخلص منه، وهكذا تصله الأخبار بأنهم يدبرون لقتله فى ليلة معينة، فيضع خطة لانقاذ ابنته فيتفق مع سكينة الخادمة على أن تذهب بها إلى حيث يوافيهم حسن ابن عمه لتهريبهم، أما هو فسيبقى إلى أن يخيم الليل ويسود السكون فينتقل عبر الأسطح المجاورة إلى بيت عمه تاركًا مصباحًا مشتعلاً فى شقته لتضليل المتربصين به **(= كناية عن نوم على فى فراش النبى ﷺ لتضليل المشركين ليلة الهجرة)**

ومع أنه اضطر لتغيير خطته، إلا أنه نجح آخر الأمر فى الفرار.. وركض بأقصى سرعة حتى بلغ المكان الذى كان أصحابه ينتظرونه

فيه.

وانطلق الجميع فى عربة إلى الجبل حيث قابلوا العجوز يحيى، ثم ذهبوا إلي المكان الذى استوطن فيه المهاجرون من قبلهم فى جبل المقطم حيث استقبلوه بالترحاب والغناء والهتاف ونشيد «يامحنّى ديل العصفورة !» (=**إشارة إلى الهجرة إلى المدينة ونشيد «طلع البدر علينا»)**

وعندما تناوله سكينة الخادمة كوب ماء وتقول له إنهم أحضروه من الصنبور العمومى، كما سقى جبل المرأتين من قبل، يُسرّ قاسم كثيراً لأن أى إشارة تقرنه بجبل ورفاعة أو تشبهه بهما تجعله سعيداً (= **كما لو أن لديه - حاشا لله - مركب نقص، أو أنه ادعى النبوة متشبهًا بموسى وعيسى من غير أن يكون نبيًا صادقًا أو أهلاً للرسالة ! أو كما لو أنه كان يشعر أنهما بلغا مكانةً لا يستطيع أن يبلغها ! ولاحظ أيضًا مسألة تصوير الوحى أو الاتصال بالسماء بالنسبة لشخصية قاسم، حيث حدثت مرة واحدة وحولها ظلال من الشك ممن حوله، وهو الراوية الوحيد لها، مما يوحى بأن محمداً ﷺ اختلط عليه الأمر أو كان مجرد تهيؤات، إذ لم يعد الملاك مرة أخرى، وإذن فالرسالة كلها من عند محمد، ولكنها بدأت بما «اعتقد» أو «خُيِّل له» أنه وحى من السماء !)**

ويشعر قاسم بالوحدة بعد وفاة قمر، ويفاتحه أصحابه فى ضرورة الزواج، وأخيراً يتزوج من بدرية - الفتاة الصغيرة الناضجة - أخت صادق أخلص أصحابه، ويتذكر قاسم قمر ذات يوم وتفلت منه عبارة

ثناء عليها، فتتجهم بدرية – غيرةً – وتقول له إنها كانت عجوزاً ولم تكن جميلة ! فينهاها عن أن تتحدث عنها هكذا، ويقول لها إن امرأةً مثل قمر ينبغى أن تذكر بالترحم عليها

(= طبق الأصل، ما قالته السيدة عائشة مرة للرسول ﷺ عن السيدة خديجة ورده – عليه السلام – عليها !)

وبعد أن يزداد عدد المهاجرين وتزداد قوتهم فى الجبل يهجمون على زفة «سوارس» فتوة الحارة، وتحدث معركة رهيبة بالشوم والنبابيت تنتهى بمصرع سوارس، وانتصار قاسم وأصحابه **(غزوة بدر)**

وما يلبث الفتوات وأنصارهم أن يزحفوا على الجبل حيث قاسم وأصحابه للانتقام منهم، وبينما يخالف بعض أنصار قاسم أوامره ويتركوا مواقعهم الجنوبية، يتسلل «لهيطة» [الفتوة الكبير»] من الثغرة ويهاجم قاسم وأصحابه **(= غزوة أحد)**، ولكن ينتصر قاسم وأتباعه [الجرابيع] بعد معركة رهيبة تسيل فيها الدماء أنهاراً ويُقتل فيها لهيطة.

ويستدعى رفعت [ناظر الوقف] « جلطة» و « حجاج» الفتوتين الباقيين – ويأخذ عليها عهداً بالاتحاد من أجل الانتقام، وذلك بحصار قاسم وأصحابه فى الجبل.

ولكن جلطة وحجاج يضمران لبعضهما البعض شراً حتى يفوز أحدهما بمنصب لهيطة [كبير الفتوات]. وبالفعل، يُقتل حجاج غدراً وهو مخمور بالليل، ويتهم أنصاره جلطة بتدبير مقتله، وما تلبث أن تنشب

معركة بين الفريقين يحاول ناظر الوقف منعها وإقناعهم بأنها مكيدة من قاسم لبث الفرقة بينهم ومهاجمتهم على حين غرة.. ولكن نصح الناظر يذهب سُدًى...

ويحدث بالفعل هجوم مفاجيء من قاسم وأتباعه من أكثر من اتجاه، وتحدث مواجهة عنيفة ينتصر قاسم واصحابه في نهايتها نصرًا مؤزرًا (=**فتح مكة**).

ويقود قاسم الناس بعد انتصاره ويقف الجميع أمام البيت الكبير حيث يقف فيهم خطيبًا قائلاً:

«هنا يعيش الجبلاوى.. جدنا جميعًا. ليس هناك حىّ من الأحياء أقرب صلة به من الآخر، ولا أى شخص رجلاً أو امرأة. حولكم أوقافه، وهى تخصكم جميعًا على قدم المساواة كما وعد أدهم عندما قال له: إن الوقف لك ولذريتك، فيجب علينا أن نستخدمه كما ينبغى حتى يحصل كل منا على نصيبه ويعيش كما أراد أدهم فى بحبوحة وسلام وسعادة. لقد ذهب ناظر الوقف بغير عودة، وانتهى الفتوات، ولا يجب أن يحل محلهم فتوة آخر. لن تكون هناك أتاوه تدفع إلى طاغية، أو تكون هناك استكانة وذل لفتوة مخمور، يمكن أن تقضوا حياتكم فى حب ورحمة وسلام.. وفى مقدوركم ألا تعود الأمور كما كانت عليه من قبل...» **(لعلها إشارة إلى خطبته ﷺ فى حجة الوداع)**

وقضى قاسم حياته في البناء والتعمير والسلام، يوزع بالعدل ريع الوقف على الجميع، ولم تشهد الحارة من قبل مثل هذه الوحدة والانسجام والسعادة. لقد رأى فيه الجرابيع رجلاً نموذجيًا لم يروا مثله

من قبل (يُشكر المؤلف على كل حال، لكن ما قيمة شهادتهم هذه وهم - أولاً وأخيراً - «جرابيع»؟!) فإنه كان يجمع بين القوة والرقة. والحكمة و،البساطة، والسيادة والتواضع، كان أمينًا ومهيبًا ومحبوبًا في آن واحد. وإلى ذلك كله (خذ بالك مما سيأتى) كان ظريفًا بشوشًا أنيقًا وحشاشًا يلذ مجلسه (!)، اللهم إلا أنه توسع فى حياته الزوجية، فعلى حبه بدرية تزوج حسناء من آل جبل وأخرى من آل رفاعة (= إشارة إلى أن من نسائه ﷺ «صفية بنت حيى» التى كانت يهودية، و«مارية» القبطية) وتعشق امرأة من الجرابيع ثم تزوج منها أيضًا (بالرغم من غموض هذه العبارة ظاهريًا، إلا أنه يستشف منها الإشارة إلى زواجه ﷺ من السيدة زينب بنت جحش -رضى الله عنها-، وفى قوله «تعشّق» ترديد لمقولات بعض المستشرقين والمرجفين أعداء الإسلام من أن الرسول ﷺ كان قد رآها فأعجبته وكان يقول لزيد أمسك عليك زوجك بينما هو يحب أن تطلق منه ليتزوجها.. ومع أن هذا ليس مقام تفنيد هذه الأكذوبة ودحض هذه الفرية، إلا أننا - خدمة للقارىء العزيز - نوجز له الحقيقة حتى يتسلّح بها أمام الافتراءات والدعاوى الكاذبة.

يعد هذا التفسير لقصة زواجه ﷺ من زينب بنت جحش بعد طلاقها من زيد بن حارثة بعيد كل البعد عن الحق، والذين يتبنون أمثال هذه الروايات الضعيفة والاسرائيليات إنما ينسبون الهوى والميل وكل ما لا يليق برسول الله ﷺ.

فقد كان هذا الزواج بأمر من الله تعالى لما ذكر فيه من حكمة

التشريع ولم يكن برغبة النبى ﷺ ولا بميله، وذلك بدليل قول الله تعالى « زوجناكها » فى سورة الأحزاب، الآية ٣٧، ثم إن زينب ابنة عمة النبى ﷺ تربت معه منذ الصغر وكان يعرفها ولم يكن هناك حجاب يمنعها منه، ونَفْس الرسول ﷺ أجل وأسمى من أن يعلق بها شيء من هذا.

وخلاصة الحكمة من هذا الزواج [زواج زينب بنت جحش من زيد] هو جبر خاطر زيد بن حارثة بعد تحريم التبنى بتزويجه من زينب الشريفة الحسيبة ومساواته فى ذلك بأشرف الرجال وأسماهم قدراً، وعَلِمَ الناس أن الكفاءة إنما هى فى الدين والتقى، ولم تكن زينب ترضى هذا الزواج ولكنه كان أمراً من الله تعالى [الآية ٣٦ الأحزاب] وبدأ زيد يلقى منها المتاعب فطلب من النبى الموافقة على طلاقها فقال له ﷺ أمسك عليك زوجك واتق الله - وهو يعلم أنه لابد له من طلاقها ومفارقتها وأن الله يأمر نبيه بالتزوج بها بعد طلاق زيد لها إبطالاً لبدعة التبنى إذ إن امرأة المتبنَّى فى الجاهلية كان لا يجوز أن يتزوجها الرجل الذى اتخذ زوجها ابنًا له، وهذا المقصود بقوله تعالى « وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه » وليس كما افترى المفترون.

وهكذا نعلم أن قصة زينب هذه إنما كانت كلها من تدبير الله وبأمره هو سبحانه لحكمة جليلة لما فيها من تشريعات ودروس للمسلمين - ولمن أراد المزيد يمكنه مراجعة كتاب « زوجات النبى الطاهرات وحكمة تعددهن للشيخ محمد محمود الصواف »، وغيره من الكتب المفيدة فى

هذا الموضوع).. وقال أناس فى زواج قاسم من أكثر من واحدة إنه يبحث عن شيء فقد منذ افتقد زوجته الأولى قمر.

وقال ابن عمه زكريا: إنه يريد أن يوثّق أسبابه بأحياء الحارة جميعًا، لكنهم لم يكونوا بحاجة إلى تفسير أو تعليل لما حدث.. بل الحق أنه إذا كانت الحارة قد أعجبت به لأخلاقه مرة، فقد أعجبت به لحيويته وحبه النسوان مرات.. إن حب النسوان فى حارتنا مقدرة يتيه بها الرجال ويزدهون.. ومنزلته تعدل فى درجتها درجة الفتوات في زمانها أو تزيد!

(= مرةً أخرى يضطرنا المؤلف للتوقف والتعليق، وإن كنا نفضل إلاّ نتدخل كثيراً بالتعليق، واثقين أن فطنة القارىء ستدرك دلالات الرموز ومعانى الايحاءات وما وراء الغمز واللمز، وأن غيرة القارىء على دينه وعلى سُمعة رسوله ﷺ كفيلة أيضًا بأن تجعلنا فى غير حاجة للمزيد من القول أو للدفاع عن شرف الدين وشرف النبى.. ومع ذلك يبدو أننا أمام عبارات مستفزة لم تجىء من الكاتب عفواً أو سهواً، بل وُضعت قصداً لتؤدى غرضًا بعينه هو أن ينقل عن المغرضين من خصوم الإسلام «نقل مسطرة» كل تهمة ألصقوها بالإسلام ونبيه ظلمًا وزوراً أو جهلاً وغفلة، حتى لو كانت هناك مئات الكتب وألوف الصفحات قد كتبت بروح علمية وموضوعية -بأقلام مسلمين وغير مسلمين على السواء- للرد على هذه الدعاوى وتفنيدها! مما يؤكد اجتهاد الأستاذ الدكتور محمد يحى فى دراسته النقدية فى هذا الكتاب لتفسير الدافع إلى كتابة هذه الرواية بأنه محاولة لإرضاء الصفوة الشيوعية المسيطرة وقتها، وكما لو كان الكاتب - كما قلنا من قبل - يؤدى مهمة محددة هى أن يضع أمامه كل الافتراءات ضد الإسلام - مهما كانت

سذاجتها وتهافتها - ويحشو بها روايته ثم يسلّمها كأنها رسالة مسجلة بعلم الوصول! وليس من قبيل الصدفة،

إذن أن يُنشر في نفس ذلك العهد - بكل جرأة - كاريكاتير يصور ديكًا وحوله تسع دجاجات وتحته تعليق يقول «محمد أبو لمعة.. وزوجاته التسعة ! » ينتقد صلاح جاهين نابليون لأنه كان يحب أن يلقى بكل علماء الأزهر فى النيل! وإذن فإن بعض المسلمين الذين يُسيئون استخدام رخصة تعدد الزوجات التى أباحها الإسلام لحكمة جليلة ولا يرون فيها إلا حقًا مطلقًا للرجل بالاستمتاع بالنساء هم فى الحقيقة - من وجهة نظر نجيب محفوظ - مقتدون بنبى الإسلام فهو الآخر كان «يحب النسوان» وقد أعجبت به الحارة (أتباعه من أمة الإسلام) لأخلاقه مرة واحدة.. وأعجبت به لحبه النسوان مرات كثيرة.. فهذا هو مربط الفرس وبيت القصيد.. ودعك من كل تعاليم الإسلام وأركانه وأخلاقه وآدابه وشرائعه.. لقد اختزل الكاتب كل سيرة النبى العظيم - فى ختام الجزء الذى خصصه له - فى تلك الكلمات الوقحة التى ترفّع عنها كثيرون لم يتشرفوا بالانتساب لهذا الدين العظيم، والله غالب على أمره).

عـــرفـــــة

بعد وفاة قاسم يخلفه صديقه صادق، بينما يحرّض آخرون حسن على تولى الأمر لأنه أحق به من أى شخص آخر (= **إشارة إلى التشيّع**)، ولكن حسن لا يقبل أن يستخدم العنف من أجل ذلك، وبعد فترة من الزمن يعود الأمر إلى ما كان عليه قديمًا إذ يسيطر أحد أحفاد الناظر القديم «رفعت» بعد تقاتل أتباع قاسم، ويكون لكل حىّ فى الحارة فتوته...

ويأتى إلى الحارة ذات يوم «عرفة» الساحر وهو ابن جَحْشه (!) العرّافة التى كانت تقيم فى الحارة قديمًا.. ومعه أخوه ومساعده «حَنَش»، ويستأجر «بدرومًا» فى الحارة، ويستدعيه الفتوة «حجاج» ليعرف منه ماذا ينوى أن يعمل.. ويخبره عرفة أنه ساحر وأنه سيدفع له الإتاوة المفروضة، ويغريه بأن يقدم له شيئًا يقول له: جرّبه فى فنجان شاى قبل الجماع بساعتين وستعرف بعد ذلك إن كنت ستُسَرّ من عرفة أم ستطلق خلفه اللعنات!

ويخاف حنش عندما يعرف أن الشقة التى سيعيشون فيها ماتت فيها امرأة محترقة من قبل، ويخشى أن تكون مسكونة بالعفاريت، فيسخر عرفة من خوفه، ويقول : أنسيت أننا نمارس عملنا مع العفاريت.. تمامًا كما كان جبل يفعل مع الحيات؟!.

(= ايحاء بأن ما فعله سيدنا موسى بالحيات كان من قبيل السحر والشعوذة ولا يختلف كثيراً عن أى سحر آخر ولم يكن وراءه قوة سماوية، وإشارة من ناحية أخرى إلى أن العلم استطاع أن يخرج العفريت من القمقم)

ويتردد الزبائن على عرفة طالبين السحر والشفاء، ويطلب معظمهم منه سراً الوصفة الجنسية التى أهداها للفتوة وشاع أمرها، ويكثر فى كلام أهل الحارة الاستخفاف بما كان عليه جبل ورفاعة وقاسم، وإن كانت ما تزال قصتهم تروى في المقاهى على الربابة.

ويُسرّ عرفة إلى أخيه حنش بأفكاره بينما هو منهمك فى خلط أشياء غريبة فى ورشته حيث توجد الطلاسم والنباتات والبخور والعقارب والفئران والحشرات والجير والتراب وحيوانات محنطة وقطع زجاجية وعلب بها سوائل لها روائح نفاذة غريبة وفحم نباتى وموقد ، إلخ !

ويقول عرفة لا تنسى متعة السحر نفسه! متعة استخراج شيء نافع من بين مواد غير نقية، متعة شفاء الناس عندما يسمعون نصائحك، ثم هناك القوى الخفية التى ستحب أن تمتلكها.. إن أحداً من السُّذَّج الذين يظنون أنفسهم ذوى شأن عظيم فى هذه الحارة لا يفهم أهمية ما يُفعل فى هذه الغرفة المظلمة القذرة بروائحها الغريبة.

(= إشارة إلى أن المخترعات العظيمة والابداعات الكبيرة للعلم خرجت من معامل متواضعة انقطع فيها العلماء عن العالم الخارجى وعكفوا على بحوثهم في صمت، مما لا يقدّره الناس بعد ذلك وهم يستفيدون من نتائج هذا العمل) .. إنهم يدركون فقط فائدة «الهدية»..

ولكن هذه الهدية ليست كل شيء، فهناك عجائب لا يمكن تخيلها يمكن أن تخرج من هذه الغرفة يومًا ما. سوف تتدفق المعجزات، ولن تقف عند حد.. إن الحمقى لا يقدّرون قيمة عرفة الحقيقية، ولكن لعلهم يقدّرونه يومًا ما...)

(= عرفة «الاسم مشتق من المعرفة» أى الذى لديه العلم والمعرفة.. لكن ليس عن طريق الوحى أو الرسالات أو الأساطير أو الدين، بل عن طريق ورشته ومعمله وما يخلطه من مواد. وكل هذا يرمز للعلم المادى وما فيه من اكتشافات واختراعات وتكنولوجيا.. ولذلك فهذا العلم فيه وحده كل العجائب والغرائب، وفيه وحده النفع والفائدة. ولكن لأن أهالى الحارة قريبو العهد بقصص السابقين مثل أدهم وجبل ورفاعة وقاسم، فلم يقدّروا قيمة العلم المادى بعد.

ونلاحظ كذلك أن «عرفة» فى الرواية ينتمى إلى أمّ ساحرة [= يعنى تربى فى بيئة علمية بعيداً عن قصص السابقين وأحداثهم وأساطيرهم] ثم إنه مجهول الأب [= أى أن العلم لا أب له.. أو لا يهم فيه الأسلاف بل ما يكتسبه كل شخص باجتهاده.. أو أن العالم لا ينتقص منه أن يكون ابن زنا أو أن ينجب هو نفسه من الزنا.. أو أن عرفة هذا مشكوك فى عودة نسبه إلى الجبلاوى، وبالتالى فالعلم نشأ بعيداً عن الدين منقطع الصلة به لا ينتسب إليه، إلى آخر الدلالات التى يمكن أن تخرج بها من شخصية عرفة بالإضافة إلى ما سيرد بعد ذلك).

· ويزداد زبائن عرفة، ويتعلق هو بفتاة فقيرة جميلة اسمها «عواطف»

(سنعلم بعد ذلك أن ارتباطه بها سيعوقه عن عمله.. وأنه سيحدث خلاف بينهما.. وأن رغبته فى زيارتها ستكون سببًا فى القبض عليه والفتك به، مما قد يشير - إذا أخذنا فى الحسبان ما يرمز إليه اسمها «عواطف» أن العاطفة المنافية للعقل والعقلانية - إلى أن انتصار العلم ونجاحه مرهون بتخلصه من كل أثر للعاطفة البشرية)
وأبوها «شكرون» - الذى أضناه فى شيخوخته التجول بعربة فى الطرقات فافتتح مقهى متواضعًا - كان من معاصرى قاسم.

ويواجه عرفة مشكلة، هى أن «سنطورى» الفتوة معجب أيضًا بالفتاة، ولكن عرفة - بحسن علاقته بحجاج الفتوة - ينجح في الزواج منها بعد أن قتل سنطورى أباها العجوز.

ويتضح من حوار عرفة وحنش أن عرفة كان يفكر فى الانتقام لأمه ومصيرها البائس من أهالى الحارة (يبدو أنها لقيت معاملة سيئة وساءت سمعتها بين أهل الحارة إلى أن ماتت فى بؤس)، ولكن عرفة يخبر حنش أن تفكيره لم يعد يتركز فى الانتقام، بل فى جلب السعادة للجميع بالتخلص من الفتوات وبطشهم، ووسيلته فى ذلك : السـحـر.

وفى حوار مع عواطف يقول عرفة:

«كل من يمر بضيق يصيح «يا جبلاوى! » كما كان أبوك المسكين يفعل. ولكن هل سمعت عن أناس مثلنا لم يروا مطلقًا جدهم هذا، مع أنهم يَحْيَوْن حول منزله المُوصد؟!.. وهل سمعت عن إنسان له وقْف يترك الناس يعبثون بوقفه من غير أن يحرّك ساكنًا على الإطلاق؟! » .

وتجيبه : «إنه كبر السن» .

فيقول بارتياب: «إننى لم أسمع مطلقًا عن شخص عاش مثلما عاش».

فتقول: «إنهم يقولون أن هناك رجلاً فى سوق المقطم عمره مائة وخمسون عاماً، فيقول عرفة بعد صمت : «الله قادر على كل شيء»، ثم يغمغم قائلاً : «ونفس الشيء بالنسبة للسحر.. إنه الآخر قادر على كل شيء» .

(= هنا يخرج الكتاب عن الرمز إلى الحقيقة لأول مرة، ولعلها المرة الوحيدة، إذ لا تنصبّ الاتهامات هذه المرة على رأس جبلاوى – كالعادة – حتى مع كونه يرمز إلى الله تعالى، بل يتجه الكلام إلى [الله] نفسه صراحةً ومن غير غلالة الرموز أو غموض الأجواء الغريبة: الله قادر على كل شيء.. وكذلك السحر.. قادر على كل شيء ! أى أن [العلم] يشارك الله فى إحدى صفاته وهى القدرة المطلقة، وبالتالى فالعلم إله جديد له نفس الصفة– ومن هذه الزاوية يستحق التقديس على قدم المساواة! .

ثم نأتى إلى التعقيب على هذه الدلالة، فالمقصود أنه إذا كان الدين قادراً على تحقيق المعجزات أو تفسيرها، فإن العلم المادى قادر على تحقيقها وتفسيرها تفسيراً ماديًا – وأنه إذا كانت المجازات الأنبياء قد بقيت زمنًا قصيراً، فإن العلم هو الذى ستدوم معجزاته. . .

وهذه الأفكار لا تحتاج إلى دحض من فرط سذاجتها، فمن ذا الذى

يقول إن العلم جاء بديلاً للدين؟! ... ومن ذا الذى يمكنه أن يدّعى أن عصر النبوة انقضى وورثه عصر العلم مع أن معجزة الإسلام فى بقاء قرآنه وشريعته وسنة رسوله دليل على أن زمن رسالته ممتد إلى يوم القيامة؟!...

ومن ذا الذى لم يسمع حتى الآن بمدى اهتمام الإسلام بالعلم والعلماء... وبالنهضة العلمية العظيمة إبّان ازدهار حضارة الإسلام العظيمة التي تتلمذت عليها أوربا وبنت عليها نهضتها الحديثة،

بل من ذا الذي ينكر وجود مئات من العلماء - من غير المسلمين - يجمعون بين تفوق علمي عالمي في تخصصاتهم وإيمان روحي عميق بالدين وقيمه ومبادئه، وأن التناقض بين نصوص الدين ومعطيات العلم، أو بين سلطة الدين والكهنوت والسلطة الزمنية.. إلخ، حدث في أديان أخرى غير الإسلام، فحتى لو انطبق هذا الكلام على أديان بعينها، لايمكن أن ينطبق على الإسلام.

ومن العجيب - والمحزن - أن تثار هذه القضية المختلقة علي يد كاتب مسلم.. من باب المحاكاة والتقليد الأعمى فقط لما قاله فلاسفة غربيون من قبل، وإن كان لاعجب مادام أمثال هذا الكاتب يولّون وجوههم شطر الغرب في كل حركة وسكنة!).

وتنبت في ذهن عرفه فكرة تسيطر عليه وهي أن يقابل الجبلاوي الجد الأكبر للحارة كلها بأن يذهب إليه في قصره..

وتفكر عواطف زوجته في دوافعه لذلك، وهل هو رجل مجنون أم أنه

مخدوع وواهم.. ونعلم هنا أن عرفه هو الوحيد في الحارة كلها الذي لايتعاطي الحشيش (**= هذه مسألة في غاية الأهمية، لأنه لأول مرة منذ بداية القصة - وحتى نهايتها - نجد شخصاً واحداً لايتعاطى الحشيش، هو عرفه الذي يرمز للعلم المادي الملحد، في حين أن الجميع - بما فيهم حتى أولئك الذين يرمزون لرسالات السماء - كانوا يتعاطون المخدرات كالأكل والشرب تماماً لدرجة أن القاريء يحس من سياق الرواية أن المخدرات من لوازم الحياة بين الجميع في هذا المجتمع، وكذلك الخمر، دون أن يرد في النص أي إشارة - ولو خافتة - إلى أن هذا محرّم أو أن هناك من يستنكره أو يحاربه أو يجتنبه، وفي كل ذلك إشارة واضحة إلى أن (الدين أفيون الشعوب)، وإلى أن العلم المادي الملحد هو المنقذ الوحيد من هذه الحالة من فقدان الوعي...!**).

وتواتي عرفه فكرة يستعين بها لتحقيق غايته.. فيحفر على مدى عدة ليال وفي ظلام الليل الدامس نفقاً من خارج البيت الكبير إلى داخله، ثم يتسلل عبره ذات ليلة إلى داخل الحديقة الغنّاء ثم مإلى داخل البيت، إلى أن يصل إلى غرفة النوم التي بداخلها الغرفة الصغيرة التي تحوي الكتاب السري.. ولكن قبل أن يتمكن من الوصول للكتاب يستيقظ أحد الخدم ويحاول الإمساك به، وتتملك عرفه المفاجأة والذعر فيجد نفسه وقد أطبق على عنق الخادم ولم يتركه إلا جثة هامدة، وأسرع خارجاً من غير أن يتمكن من تحقيق ما جاء لأجله.. فلا هو رأي الجبلاوي أو حادثه، ولا اطلع علي خفايا الكتاب السري.

وعاد مذعوراً إلى بيته، ثم استيقظ الجميع على أصوات بكاء وصراخ آتية من البيت الكبير، وعلموا أن «الجبلاوي قد مات!».. وتبين بعد ذلك أنه علم بقتل خادمه.. ولم يستطع إنقاذه بكبر سنه وشيخوخته وضعفه، فأصابه الهم والغمّ ومات كمداً!

(نلاحظ أن تفاصيل موت الجبلاوي زاخرة بالرموز والدلالات. ولا ريب في أنها أهم أحداث هذه الرواية على الإطلاق وهى الهدف الذي يريد المؤلف – أساساً – أن يصل بالقاريء إليه عبر كل تلك الأحداث المتشابكة والمتلاحقة.

فنجد أن موت الجبلاوي (أو موت الإله) يرمز إلى أن الدين والإيمان بالله تعالى قد استنفد أغراضه وانقضى عهده، ولا أمل في عودته لأن الموتى لايعودون إلى الحياة في هذه الدنيا، ثم إن موته كان بسبب تعرف عرفه أو أن عرفه كان هو السبب في موته يعني أن موت الإله أو انقضاء وانهيار الدين السماوي حدث على يد العلم الدنيوي الملحد.. وهكذا نرى أن الرمز مركّب، فمن ناحية: مات الإله، ومن ناحية أخرى: مات على يد العلم..

وهذه هي الفكرة الطفولية الساذجة التي أشرنا إليها في غير هذا المكان وكأنها الكنز الخطير الذي عثروا عليه..

ومؤداها أن البشرية شهدت عصوراً متتابعة تقضى كل منها على ما سبقه. فكانت أولاً حقبة الأساطير والتفكير الخرافي، ثم جاءت الأديان في عصور تالية فهذبت شيئاً ما من التفكير الأسطوري وأضفت عليه قيماً معينة لابأس ببعضها.. لأنها مرحلة من التطور

الفكري الإنساني.. ثم جاء عصر العلم فألغى مرحلة الأساطير ومرحلة الدين وحل محلهما بمنطقة المادي العقلاني. وهكذا - وفق هذا التصور - يجب أن يظل هذا المنطق المادي العلماني الملحد هو السائد لأنه الذي ورث كل هذه العهود الخرافية الأسطورية بما فيها عهود الدين لأنها في أحسن الأحوال ليست إلا امتداداً لعصر الأسطورة، ومجرد مرحلة مرَّ بها العقل البشري - في مدارج تطوره ورقيّه - ثم تخطاها!

مع أن دارسي الفلسفة والتاريخ - والمثقفين عموماً - يعلمون جيداً أن الذين أعلنوا هذه الصيحة «أن الله قد مات» قالوها وفي أذهانهم «إله» غير «الله» الواحد الأحد..

فكلمة (الله) في لغات الغرب المسيحي تعني (الإبن) مثلما تعني (الأب) و(الروح القدس) - أقانيم المسيحية أو الثالوث المقدس - وفي هذا الإطار كان المقصود بموت الإله هو موت يسوع المسيح على الصليب (في اعتقادهم) وكأن أصحاب هذه الصيحة - ومن أشهرهم نيتشه - وقد وعوا تماماً الآثار السلبية لسيطرة الكهنوت المسيحي الأوروبي على المجتمع حكاماً ومحكومين.. ومعاداته للعلم وحرية الرأي.. إلخ فأرادوا أن يذهب هذا السلطان البغيض إلى غير رجعة ووجدوا في موت الرب المخلص يسوع المسيح على الصليب حجتهم، فيا من لاتزالون تؤمنون بمثل هذا الدين تذكروا أن ربكم هذا قد مات.. وإذن فالطريق خالي لرب جديد!

مالنا نحن ياأستاذ محفوظ.. ومال هذا.. سامحك الله؟!!

المهم - نعود إلى رموز وفاة الجبلاوي، فنجد أن عرفه هو الوحيد

الذي استطاع الدخول إلى بيت الجبلاوي.. ثم تسبّب في القضاء عليه، وإذن فالعلم المادي هو الوحيد الذي استطاع قهر فكرة الإلوهية والقضاء عليها، ثم إنه كان الوحيد في الحارة الذي لم يكن يشرب الحشيش «إلا قرب أواخر الرواية وكرمز لوقوعه تحت سيطرة السلطة الزمنية»، وإذن فكل اتباع الأديان - بما فيهم أتباع الإسلام - «مساطيل» في أتّباعهم للدين الذي هو «الحشيش والأفيون» الذي يسيطر على الناس، إلا الذي يتمسك بأهداب العلم المادي فهو وحده اليقظان الواعي الذي يملك كل حواسه وعقله وإرادته!

والسحر الذي يمارسه عرفه في الرواية ويحقق به كل ذلك يرمز للعلم المادي، فهو الوحيد القادر على صنع المعجزات، وهي معجزات حقيقية يمكن أن نراها، وليست كتلك المعجزات التي يحكى عنها الشعراء والرواة على الربابة في المقاهي «رمز للكتب المقدسة التي يردد ما فيها علماء الدين والمتدينون» فهي من قبيل الأساطير التي لايعلم أحد إن كانت حدثت أو لا!

كما أن عجز الجبلاوي عن الدفاع عن خادمه وقهر عرفه يرمز لعجز الدين أو الإله - كما يزعمون - عن التصدي لقوة العلم القاهرة والدفاع عن أتباع الدين (الضعاف المسحوقين) في مواجهته..

كذلك يقول عرفه بعد تجربة دخوله قصر الجبلاوي في إطار التوبيخ لمعتقدات أهل الحارة أنهم يظنون أن حارتهم هي مركز الكون، ولكنها ليست إلا ملاذ التافهين الصعاليك والشحاذين..

وحيث إن الحارة ترمز - قبل عرفه - لعصر الأديان، فالمعنى أن

الدين هو الوهم الذي يلجأ إليه كل فقير في العلم الدنيوي فهو كالشحاذ لايملك قُوتاً «فكرياً وعقلانياً» وكالتافه غير جاد لأنه يشغل نفسه بهذه الأقاصيص التي تُحكي على الربابة (الآيات والأخبار الدينية»!.

كذلك من الدلالات أن الجبلاوي - بالرغم من إعلان وجوده الطاغي وتصرفاته القاهرة المؤثرة في أوائل الرواية - إلا أن عرفه (= العلم المادي الذي يكتشف كل شيء ويحكم عليه بالوجود أو العدم طبقاً لأدواته وحواسه فقط) لم يره عندما دخل بيته: فهذا يشير إلى أنه غير موجود أو غير حقيقي، أي أن الكل يسمع.. ويتحدث عنه.. ولكن عندما يغامر العلماني الشجاع المتسلح بروح التحدي ليكشف حقيقة هذا الإله لايجد شيئاً.. فكأنه وهم موجود فقط في رؤوس المؤمنين به، كل ذلك علاوةً على الدلالة الأخرى الموازية والمتمثلة في موت الجبلاوي..

وكأن المؤلف - هداه الله - لم يكتف برمز يشير إلى الشك في وجود الخالق لعدم التمكن من رؤيته جهرة، فأضاف إلى ذلك رمز موته و«دفنه».. حتى يقطع الشك باليقين ويؤكد مقولة نيتشه بأن الخالق الذي يزعم المؤمنون وجوده - إن كان له وجود أصلاً - قد مات وشبع موتاً، بل ودفن أيضاً إلى الأبد!

إن قضية عدم الإيمان بالخالق لأننا لانستطيع أن نراه.. أو نكلمه، فكم جاء عليها من ردود عديدة في القرآن، منها: (وقال الذين لايعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من

قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون) (البقرة:١١٨).

أي أن رؤيته سبحانه مستحيلة لأنه غير محدود وهو فوق طاقة حواسنا وإلا ما كانت له صفات الألوهية، ولكن هناك الآيات والمعجزات التي حولنا في الكون الرحيب.. وفي أنفسنا..

ومن لطيف ما يروى عن مسألة تشبث الملحدين برؤية الإله قبل الإيمان به قصة أستاذ ملحد قال لتلاميذه أيها التلاميذ.. هل ترون المدرس؟ قالوا: نعم، قال: إذن، فالمدرس موجود. هل ترون المكتب؟ قالوا: نعم، قال: إذن، فالمكتب موجود. هل ترون الله؟ قالوا: لا، قال: إذن، فالله غير موجود! فقام تلميذ نابه ذكي وقال للتلاميذ: أيها التلاميذ، هل ترون عقل الأستاذ؟ قالوا: لا، قال: إذن، فعقل الأستاذ غيرموجود!!)

وكان عرفه في تلك الأثناء قد فرغ من تركيب مادة سحرية (أو كيماوية) عكف على صنعها وتجربتها زمناً طويلاً، واستعملها لأول مرة عندما ارتكب جريمته الثانية بعد قتل خادم الجبلاوي، وهي جريمة قتل فتوة الحارة.. فقد القي على مطارديه هذه المادة فأحدثت انفجاراً هائلاً وأصابتهم في وجوههم وأطرافهم (مما يفهم منه أنها مادة حارقة متفجرة) ويستطيع بذلك أن يفرّ، ولكن هذا الفرار لايدوم لأن بعض شهود العيان الذين نجوا من الحادث كانوا قد تعرفوا عليه وأبلغوا ناظر الوقف الذي استدعاه وهدّده بأن يسلمه لأهل القتيل فيمزقوا جسده. وينتهي اللقاء بعقد صفقة هي أن يحصل الناظر على هذا الدواء

العجيب، أو هذه التركيبة الخطيرة، التي يملكها ويعرف سر تركيبها عرفه وحده، مقابل أن يحميه الناظر من العقاب والإنتقام.

(في هذا إشارة إلى استغلال بعض القوى الزمنية أو السياسية للعلم وسيطرتها على رجاله لخدمة أغراضهم في الحكم - ولا أدري إذا كان ذلك يعني أن السياسة هي الإله الجديد مثلاً، ما دامت الرواية قد جعلت العلم (عرفه) يقضي على الدين (الجبلاوي) ثم جعلت السياسة (ناظر الوقف) يتحكم في العلم ويسخره لحسابه ومصالحه ثم يقضي عليه في نهاية الأمر كما سنرى).

وفيما يتعلق بموت الجبلاوي، فقد ثار نزاع بين حيّ جبل وحيّ رفاعه وحيّ قاسم.. ورأي كل فريق أنهم أولى بالجبلاوي وأحق بأن يدفن عندهم هم **(= إشارة إلى فكرة تنازع أبناء الديانات الثلاث اليهودية والمسيحية والإسلام حيث يدعّي كل فريق منهم صحة انتساب عقيدته إلى الله تعالى وصحة كتابه المقدس وأنه الوحيد الذي علي حق، إلخ - وهذه فكرة قديمة..**

ويجب ألا يظن المؤلف أنه إتى بجديد عندما طعن فكرة الدين نفسها في الصميم تأسيساً على هذا النزاع، ذلك أن القرآن نفسه أشار إلى ذلك في مثل قول الله تبارك وتعالي: ﴿وقالت اليهود ليست النصاري على شيء وقالت النصاري ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لايعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم فيما كانوا فيه يختلفون﴾ (البقرة ١١٣) وقوله سبحانه: ﴿ولن ترضى عنك اليهود ولا النصاري حتي تتبع ملتهم..﴾ (البقرة:

..(١٢٠

ذلك أن اختلاف وتنازع أتباع الأديان لاينهض دليلاً أو دفاعاً لرفضها كلها لكي يريح المرء نفسه!

فمن الطبيعي أن تختلف عقائد الناس وتتفاوت ولكن الإنسان مسئول أن ينظر فيها ويُعمل عقله ويرضى باتباع العقيدة التي يطمئن إليها قلبه وعقله، وإلا فما جدوى العقل؟!)

وينتهي النزاع بأن يُدفن الجبلاوي في الزاوية الصغيرة الملحقة بحديقة قصره الكبير.

ويثور صراع بين حيّ جبل وحيّ رفاعه وحيّ قاسم على من يكون الفتوة الجديد بعد مقتل فتوة الحارة، ويستعدي الناظر (يوسف) فتوة حيّ جبل متمنياً له الفوز بالمنصب.. ولكن «عجاج» فتوة حيّ رفاعه و«سنطوري» فتوة حيّ قاسم يتفقان عليه فيقتلانه.. ثم يبرمان عهداً أن تكون القرعة هي التي تحدد من منهما يكون فتوة الحارة كلها.. وعندما تأتي القرعة في صالح سنطوري يهجم عليه أحد أتباع عجاج ويقتله.. ويقتتل الفريقان إلى أن يأتي الناظر ويحسم الأمر بأن يصارح عجاج بأنه لايريد أي فتوات في الحارة، وسرعان ما يأمر خدمه بإلقاء الزجاجات التي تحوى المادة السحرية عليهم فيحدث الإنفجار.. ويسقط الجميع.. ويرتج المكان.. وتتساقط الجدران.. ويعلو الصياح.. ويجهز الخدم على الفتوات وأتباعهم!

وينتقل عرفه وزوجته عواطف وأخوه حنش للإقامة في قصر الناظر

الذي قرر الإعتماد علي سحر عرفه في السيطرة على الحارة وأهلها بعد أن تخلص من الفتوات.

ويحسّ عرفه أنه في سجن لأن الناظر استغل خوفه من انتقام أهل الفتوة الذي قتله، وأصبح عرفه مضطراً للإنقياد له وخدمته بسحره مقابل حمايته.

وتحس عواطف بالملل والرتابة داخل جدران القصر، فتذهب مُغضبةً إلي بيت إحدى النساء في الحارة، ويذهب عرفه ليقنعها بالعودة.. ولكنها تأبي.

ويحدث حادث مهم ذات يوم، عندما تُقابل عرفه في الطريق امرأة نوبية عجوز تخبره أنها خادمة الجبلاوي وأنه أوصاها قبل موته بإبلاغ رسالة إلي عرفه، وهذه الرسالة هي: «اذهبي إلى عرفه الساحر وأبلغيه عني أن جده مات وهو راضٍ عنه».

وأصابت الدهشة عرفه واتهم المرأة بالكذب أول الأمر، بل وأبلغها صراحة أنه هو الذي تسبب في موت الجبلاوي فكيف يكون قد مات وهو عنه راضٍ؟!

إلا أن المرأة نفت عن نفسها الكذب، وأكدت الوصية وكررتها له، وقالت له: «إن أحداً لم يقتل الجبلاوي.. ولم يكن لأحد أن يستطيع ذلك» ولكنه قال لها: «أنت مخطئة.. فالذي قتل خادمه قتله».

(= حيث إن خادمه يرمز لناموس وحيه ورسوله إلى رسله وأنبيائه، فإن المعني هو أن الذي استطاع هدم هذه الأديان، فكأنما بذلك قد

قضى على مصدر الوحي نفسه!).

ويشك حنش في رواية عرفه ويتهمه بأنه كان غائب الوعي وأن كل هذا (تهيؤات)، ولكن عرفه يؤكد له أن ذلك حدث، وأن الجبلاوي مات وهو راضٍ عنه (لأول وهلة، يبدو هذا الرمز غامضاً، لأنه كيف يكون الإله الذي قضى عليه العلم راضياً عن قاتله.. ثم كيف يهتم العلم المادي الملحد برضا هذا الإله عنه وهو الذي أعلن موته وفناءه على يده؟!

وإن كان لنا من اجتهاد في تفسير هذا الرمز بما يتسق مع الخط الفكري للرواية نقول: إن الكاتب وكأنه في سياق جدل فكري ليبرهن على مقولاته الفلسفية - يريد أن يُوحي بأن وراثة العلم للدين حدثت كأمر طبيعي ومنطقي وحتمية تاريخية لدرجة أن الدين نفسه سلّم بهذه الوراثة وانتقال الأمر والسلطة منه إلى العلم، لأن هذا هو الذي كان يجب أن يحدث.

ويمكن أن يُفهم ذلك على ضوء وهن الجبلاوي وضعفه «أي استنفاد أغراضه وأسباب بقائه» أو كأن الجبلاوي (الإله) وقد شاخ وكبر واقترب من النهاية نظر فيمن يخلفه فلم يجد من هو أصلح من عرفه (العلم)!

أما اهتمام العلم برضا هذا الإله فيفسره ما يأتي في الرواية بعد ذلك من أن عرفه الساحر يتمنى أن يبعث الجبلاوي إلى الحياة من جديد عن طريق سحره، وهذا الرمز - على غرابته الظاهرية أيضاً - مفهوم لأنه يعني أن العلم - وقد أصبح هو السيد الحقيقي للكون -

هو وحده مصدر المعجزات وهو وحده الخالق لدرجة أنه - إذا أراد أن يكون ثمة إله - قادر على أن يصنع إلهه بنفسه! (إله تفصيل.. أو إله حسب الطلب!).

لماذا؟! ربما ليشبع نهماً فطرياً (غير مبرر في نظر العلم المادي» إلى اتخاذ إله أو معبود! ولا يختلف الأمر كثيراً عن الكفار الذين كان بعضهم يصنع إلهه من العجوة ثم يأكله إذا جاع!

وهنا نذكر بيتاً قاله بعض الأدباء في مطلع هذا القرن ليعبر به عن هذه الحقيقة - حقيقة احتياج الإنسان إلى معبود وهي حقيقة فطرية تنهض دليلاً على وجود الله تعالى لو لم يرضَ الماديون بالأدلة الأخرى:

واللهِ لو جحد ابن آدم ربَّــه

لسعي إلى استنباط ربٌ ثانِ

بعد ذلك يفكر عرفه في الهرب وينفذ خطته ليلاً فيهرب هو وحنش قاصدين المنزل الذي تقيم فيه عواطف «منزل أم زنفل» ولكنه سرعان ما يُسرع وراءه أتباع الناظر وخدمه ويحاصرونه ويقبضون عليه بعد أن ينجح في إلقاء الكتاب الذي أودعه خلاصة علمه السحري في مَنْوَر ببيت أم زنفل حتى لايقع في يد الناظر.. بينما يفلح أخوه حنش في الهرب.

ويلقي عرفه وعواطف حتفهما على أيدي خدم الناظر الذين يدفنوهما حيين في جبل المقطم. ويعود حنش متخفياً إلي أم زنفل يسألها عن الكتاب - الأمل الوحيد - فتخبره أن يذهب إلي حيث يحرقون القمامة

في « الصالحية ».

وهناك وبينما هو منهمك في البحث يراه أحد أبناء الحارة ويسرع ناقلاً الخبر، وعندما يذهب أتباع الناظر للقبض عليه يجدونه قد اختفي.

ويتناقل الناس خبر حنش واحتمال عثوره على الكتاب لكي يعود مرة أخرى ذات يوم فينتقم أبشع انتقام من الناظر، بعد أن يستكمل ويطور كل ما وصل إليه عرفه من علوم السحر.

ويدعي الناظر للناس أنه عقد الصفقة مع عرفه لكي يقي الناس شر سحره، ثم لما تمكن منه اقتصّ منه جزاءاً وفاقاً لتسببه في قتل الجبلاوي جدهم جميعاً.

ويقابل الناس هذه الأخبار التي أمر الناظر أن تُغَنّى على الربابة في المقاهي - بالإستخفاف واللا مبالاة.. ويقولون إننا الآن لم نعد نهتم بالماضي، فلم يعد يعني أي شيء بالنسبة لنا. إن أملنا الوحيد هو سحر عرفه. وإذا كان لناأن نختار بين الجبلاوي والسحر، فإننا سنختار السحر» ! **(الكلام أوضح من أن يحتاج لأي تفسير أو تعليق !)**

ويعرف الناس حقيقة عرفه من أم زنفل التي عرفته عن قرب وعاشرت زوجته طويلاً، وعن طريق حنش عندما قابل بعض الناس في مكان بعيد عن الحارة، وشعر الناس أنهم ظلموه وكان حكمهم عليه قاسياً، وأصبحوا يبجلونه ويرفعونه إلى مكانه أعلى من مكانة جبل ورفاعه وقاسم حتى ولو كان هو حقاً الذي قتل الجبلاوي وادّعاه كل حيّ لنفسه.

وبدأ بعض الناس يختفون من الحارة واحداً وراء الآخر، وتهامس الناس أنهم يفرون إلى المكان الذي يختبيء فيه حنش حيث يعلمهم جميعاً مباديء السحر لكي يكونوا قوة كبيرة تعود فتنتقم من الناظر.. وتدفع هذه الأخبار الناظر إلى إحكام قبضته على الحارة وأضطهاد أهلها.. ولكن الناس يصبرون على الأذى في انتظار بزوغ فجر جديد يتخلصون فيه من القهر والطغيان.

(وهكذا أيها القاريء العزيز تنتهي أحداث هذه القصة الرمزية الطويلة التي كتبها الأستاذ نجيب محفوظ سنة ١٩٥٩ في مستهل المد الشيوعي والعلماني في مصر، كتبها في ١١٤ فصلاً - بعدد سور القرآن - (والفضل لسكرتير لجنة جائزة نوبل الذي نبهنا لهذه الحقيقة !) لكي تكون «قرآناً» جديداً (وإلا فما الحكمة؟) للعلمانيين ليس فيه إلا العلم المادي الملحد..

وليس لنا من تعليق فوق ما قلناه في ثنايا العرض والتحليل سوى أن نردد قول ربنا جل وعلا: (إنك لاتهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء).

وقوله سبحانه: (ليس عليك هداهم).

ثم نسترجع قول شاعر حكيم:

وما من كاتب إلا سَيَفْنى
ويُبقي الدهر ما كتبت يداه
فلا تكتب بخطك غير شيءٍ
يسرك في القيامة أن تراه !

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

الآن.. وبعد أن أحاط القاريء العزيز بالرواية موضوعاً.. وأحداثاً.. ورموزاً.. ودلالات.. وتمثّلها.. وأستوعب أبعادها، من خلال المقدمة والتحليل والتعليق، ندعوه لأن ينتقل معنا إلى الدراسة النقدية التحليلية التي قام بها الأستاذ الدكتور محمد يحيى، أستاذ الأدب بجامعة القاهرة، للرواية على ضوء النظريات والمدارس النقدية وعلى أساس مقارنتها بما يماثلها من قصص رمزية.. واضعاً تحليله النقدي في إطار شامل يستوعب الخلفية الفكرية والإجتماعية والسياسية للأجواء التي صدرت فيها القصة، ومستفيداً كذلك من النظرة الشاملة لكل أعمال الكاتب في سياق تاريخي وفني..

وبهذا يكون قارئنا العزيز قد أصبح «في الصورة» تماماً من هذه الرواية.. وهو حق القاريء - المثقف - على كل كاتب وناشر..

الجزء الثـــاني

أولاد حارتنا .. دراسة نقدية

د/ محـمد يحـيى

مـــدرس الأدب الإنجـــليزي

بجامـــعة الـــقاهرة

الرواية ونظرية الاستقبال الأدبى

بعد الاعلان عن فوز الأديب نجيب محفوظ بجائزة نوبل للآداب فى أوائل أكتوبر من عام ١٩٨٨ تحولت رواية **أولاد حارتنا** التى كتبت فى أواخر عام ١٩٥٩ إلى حالة مثالية تصلح لتطبيق مفاهيم نظرية الإستقبال الأدبى عليها .

وترجع هذه النظرية إلى فترة السبعينيات حيث اكتملت على يد أستاذ الأدب بجامعة كونستانز الألمانية الغربية [هانز روبرت ياوس] ونفر من تلاميذه فى مسعى لإخراج فلسفة النقد الأدبى من مأزق الانقسام إلى مدرستين متعارضتين تركز إحداهما على الشكل الأدبى وتعنى الأخرى بالجوانب الاجتماعية البحتة فى العمل.

وقد تحدد نطاق مفاهيم نظرية الإستقبال الأدبى فى الاهتمام بتأثير ما أسماه دعاتها بالأفق التفسيرى للقراء والمتلقين للأعمال الأدبية على كيفية استقبال هذه الأعمال وتقييمها ومصيرها من حيث الشهرة أوالخمول والقبول أو الرفض وصولاً بعد ذلك إلى إعادة كتابة التاريخ الأدبى والحصول على فهم أكمل للأدب يضع فى الاعتبار دور القراء والمتلقين وعوامل البيئة الثقافية الفكرية. ورأى دعاة هذه النظرية أن الأفق التفسيرى للقراء الأفراد أو البيئة بأسرها يشتمل على الأفكار

السائدة والموروثة حول الأدب ودوره وكيفية تقييمه كما يتسع لمفاهيم أخرى حول الرؤية الحياتية والقيمية العامة، ولم يمنع بعض هؤلاء الدعاة أن تتعدد الآفاق التفسيرية داخل المجتمع أو العصر الواحد التى تستقبل وتقوم الأعمال الأدبية .

وقد أحاطت برواية **أولاد حارتنا** عقب حصول الأستاذ محفوظ على الجائزة المرموقة دعاية والتفات لم يحظ به إعلاميًا أى عمل من أعماله ومنها الكثير مما يفوق هذه القصة من النواحى الفنية والشكلية أو نواحى الاهتمام بالقضايا الاجتماعية السياسية.

وكان واضحًا أن نموذجًا فريدًا من نماذج الإستقبال الأدبى يتبلور أمام الأعين المتابعة للضجة المثارة. فها هو عمل أدبى يستحوذ على الانتباه بعد حوالى ثلاثين عامًا من كتابته بدرجة أشد كثيرًا مما أثاره فور صدوره من احتجاج وسخط لتناوله شخصيات الأنبياء والرسل بشكل غير صحيح وغير لائق. وهذا العمل فوق ذلك يدخل بسرعة فى حلبة الصراع الدائر بين مجموعة من الكتاب والدعاة العلمانيين وبين أصحاب الفكر الإسلامى ليتحول إلى سلاح وورقة دعائية يشهرها اللادينيون فى وجه الدعوة الإسلامية منددين تارة برفض علماء الدين لمضامين احتوتها الرواية، ومشيدين تارة أخرى بل ومحتفين بتلك المضامين المعادية للإسلام والداحضة لفكر دعاته وهكذا تحول العمل الذى لم يكد أحد يقرؤه إلى سلاح دعائى، فى يد فئة فكرية، وفى معركة

مستمرة، في ميادين أخرى غير الأدب، وذلك بعد ثلاثة عقود من كتابته، فى ظروف أخرى، وفى سياق مرحلة مختلفة من الصراع الناشب فى مصر طيلة القرن الحالى بين الإسلام من جهة والعلمانيين والتغريب من ناحية أخرى .

وفى هذا الإستقبال الجديد لرواية نجيب محفوظ اتسم الأفق التفسيرى لدعاة العلمانية بتناقض وتبسيط مخل. فبينما كانت دعوتهم لطبع وترويج العمل مبررة بدوافع الإيمان بالحرية الأدبية وجد المتتبعون للضجة التى أثاروها أنهم لم يعيروا الجانب الأدبى الفنى أى اهتمام مركزين على مضمون **«موت الإله»** الذى اختزلوا كل أفكار أو رؤية العمل فيه وكأنهم لا يأبهون بالقصة إلا من ناحية واحدة فقط وهى استخراج فكرة أحادية الجانب مسطحة وهى – **ماأسمى بموت الإله** – واستعمالها لمواجهة الفكرة الإيمانية الإسلامية ثم استغلال رد الفعل الساخط من الجانب الإسلامى لإحراز مزيد من المكاسب الدعائية بتصوير خصومهم فى الفكر وكأنهم خصوم الحرية والعقل وأعداء الأدب والفن على وجه الأطلاق .

الإستقبال الجديد للعمل الأدبى أهدر القيمة الأدبية ذاتها وأهدر النظرة التحليلية لرواية **أولاد حارتنا** حيث اعتمد على صورة مسبقة للعمل فى أذهان أصحاب الاتجاه العلمانى وعلى تدبير مسبق لاستخدامه كمجرد أداة فى صراع أو حملة فكرية دائرة يؤدى دوره

فيها بمجرد الاسم والشهرة ويستفاد منه فى إثارة الجدل ثم ينسى حتى دون أن يقرأ ويكفى أن يسلم المستهدفون للحملة الدعائية عقولهم للعلمانيين كى يحددوا لهم ماهية مضمون **أولاد حارتنا** وكيف ينبغى لهم أن يتلقوا هذا المضمون بصورة مضادة للإيمان والفكر الإسلامى. وقد طرح هذا الأسلوب الاستسلامى فى الأذهان كصنو للعقل والعقلانية .

وتدعم هذا الاستقبال ذو النوعية الخاصة بعدد من الأحداث المثيرة التى ساهمت فى تحويل الرواية من عمل أدبى إلى سلاح دعاية وجدل فكرى محدود المدى .

ومن هذه الأحداث احتفاء المتحدث باسم اللجنة المانحة للجائزة خلال حفل التسليم بما وصفه بأنه فكرة موت الإله التى تدور عليها الرواية ثم طلب الكاتب نفسه من إحدى الصحف المصرية[١] الامتناع عن نشر الرواية مسلسلة خلال ديسمبر عام ١٩٨٨ ، وذلك فى وقت كانت فيه الدعاية العلمانية تركز على هذا النشر وتلح عليه، ثم وقعت فى نفس الشهر حملة بوليسية طالت منطقة عين شمس بالقاهرة بررتها أنباء صحفية[٢] بأنها ضربة موجهة للجماعات الإسلامية لأنها دعت إلى عقد ندوة فى أحد المساجد لمناقشة **أولاد حارتنا** على ضوء الدعاية

---

(١) هي صحيفة المساء التي تصدرها دار التحرير للطباعة والنشر.

(٢) انظر خبراً بهذا المضمون نشرته صحيفه النور الإسلامية الأسبوعية التي يصدرها حزب الأحرار بتاريخ ١٤/١٢/١٩٨٨.

العلمانية المثارة حولها، وهكذا تحولت تلك الواقعة إلى إحدى الهجمات المشهودة لأجهزة الأمن على التيار الإسلامى فى مصر. وبينما دعا متحدث باسم مجمع البحوث الإسلامية التابع للأزهر الشريف بالإبقاء على حظر نشر هذه الرواية لمساسها بالعقائد الدينية سارعت الكنيسة القبطية الأرثوذكسية إلى إقامة حفل تكريم لنجيب محفوظ .

وهكذا جاء الإستقبال الجديد لرواية نجيب محفوظ ليذكر بالإستقبال القديم إبان نشرها مسلسلة في جريدة الأهرام اليومية خلال الشهور من سبتمبر إلى ديسمبر في عام ١٩٥٩. وقد رأي أحد الكتاب في الفترة الأخيرة أن دافع نشر الرواية حينها بجانب الدافع الأصلي لكتابتها يوضع في سياق تحول ثقافي موعز به رسمياً إلى الفكر الشيوعي والعلماني بوجه عام وضد الإسلام كدين.

وقد كان هذا السياق ممهداً إلى اصدار قانون تطوير الأزهر في العام الذي تلي نشر الرواية التي بشرت ضمن أشياء أخرى بانتهاء دور الدين إلى الأبد لصالح العلم (الماركسية)(١) . ويعني هذا التصور أن الأستاذ محفوظ قد كتب هذا العمل بناءاً على إيحاءات خارجية أو لإرضاء قوى أصبحت تسيطر في وقت الكتابة على الساحة الثقافية

---

(١) انظر الأستاذ مصطفى عدنان. جريدة النور (إسلامية تابعة لحزب الأحرار) الأعداد ٣٤٨، ٣٥٢ بتاريخ ٢و٣٠/ نوفمبر ١٩٨٨).

ومنابر النقد والتقويم والدعاية للكُتاب (أو ضدهم)، وهو رأي يضيف إلى فهمنا لمحددات الكتابة الروائية التي يظن عادة أنها لاتنبع إلا من الرؤية الشخصية والدافع الذاتي للكاتب.

حقائــق مهــمة

والخلاصة أن الإستقبال الجديد لرواية **أولاد حارتنا** قد جاء ليشير إلى حقائق مهمة أولها وأبرزها أن الأفق التفسيري الذي حكم وحدد هذا الإستقبال خالف ما كان يمكن اعتباره الأفق التفسيري المتوقع للتعامل مع هذه الرواية، فأعمال نجيب محفوظ السابقة بما حفلت به من رؤى اجتماعية نقدية أو تاريخية مطروحة في أسلوب روائي واقعي أو أعماله التالية بما فيها من إثارة الرؤية الوجودية وغلبة أشكال من التجريب في الشكل القصصي، كل هذه لم توضع في الإعتبار عند تقويم **أولاد حارتنا** في استقبالها الجديد، كذلك لم يكن للجانب الأدبي البحت، (وهذا تعبير مبسط) أو للتوقعات المألوفة عما يمكن للقاريء أن يجده في العمل الأدبي (تسلية، تعبير عن المشاعر والتجربة الشخصية، دعم للقيم الإجتماعية السائدة)، أي تأثير يذكر في تشكيل الإستقبال الجديد للرواية، ولكن ما سيطر على التقييم الإيجابي لأولاد حارتنا إلى

حد منح جائزة نوبل على أساسها (كما ذهبت بعض الأنباء والتحليلات) هو اشتمال هذا العمل على تصور يعلن موت الإله وانتهاء دور الأديان في الحياة البشرية. هذه الفكرة غير الأدبية أو الفنية كانت كافية في حد ذاتها للهيمنة علي الإستقبال المتحمس وإعادة لفت النظر (وليس الاكتشاف لأن التحليل النقدي قد غاب) إلى **أولاد حارتنا** . وترسخ من خلال هذا الإتجاه الموقف من العمل الأدبي كسلاح أيديولوجي موظف في خدمة أهداف خاصة غير متضمنة في سياقه الداخلي أو في توقعات القراء العاديين منه وموضوع في سياق سياسي إجتماعي محدد حتى وهو عمل يخلو ظاهرياً من أي مشاغل من هذا النوع ويستغرق من خلال الحكاية الرمزية في طرح تصور لتاريخ البشرية الميتافيزيقي.

الإستقبال الجديد للرواية يتبلور في أن الدولة المصرية – وهي بكامل قياداتها السياسية ربما لم تقرأ هذا العمل ولم يشتهر عنها الإهتمام بالأدب بأنواعه – تسخر الجهاز الإعلامي كي يعبر من خلاله فئة من العلمانيين عن تأييدهم للرواية والحاحهم على نشرها إستناداً إلى أنها تصادم العقيدة الدينية وتخدم حملتهم ضد الحركة الإسلامية لا إستناداً إلي أي اعتبارات أدبية أو فنية خاصة بالعمل رغم تمسحهم بالأدب الرفيع كي يبرروا هذه الحملة بأسرها. وهنا يتجاور إدعاء الدفاع عن حرية الفن مع إنكار حق الحرية على من ينتقد أحد الأعمال

الفنية كما يتخفي الإتجاه الفكري المعادي للدين (الإسلام) وراء زعم الحديث عن الأدب وهو زعم يكذبه تجاهل محامو **أولاد حارتنا** شبه التام للحديث عنها كعمل أدبي.

والإستقبال الجديد لأولاد حارتنا يلقي الضوء الكاشف عن المحددات الهامة لتلقي وتقويم وفهم وتوظيف الأعمال الأدبية – والفنية بوجه عام – عند الشريحة العلمانية في الساحة الثقافية كما يشى بالأساليب التي تتبعها هذه الشريحة في تطويع الإنتاج الأدبي والكتابة النقدية والتغطية الثقافية لخدمة هدفها الأساسي في استمرار الهجوم على الإسلام وعلى حركاته الفكرية والإجتماعية.

رواية في حد ذاتـــها

وإذا كان هذا هو المنظار الذي تلقت به الفئة العلمانية الثقافية **أولاد حارتنا** ووظفتها لصالحها بعد إجراءات غير موضوعية بل وغير أدبية كما أسلفت فإن الرواية في حد ذاتها والكاتب في رؤيته العامة كان له دور كبير في تدعيم هذه النظرة. إن منظار أو إطار الإستقبال الجديد للرواية عند الفئة العلمانية وأيضاً عند الفكر الإسلامي قد حددته الرواية نفسها في إلتقائها مع الآفاق التفسيرية التي عرضت لها. والمفتاح المهم

والمهيمن هنا هو شكل أولاد حارتنا البنائي كحكاية رمزية أو أليجوريا (وفق المصطلحات الغربية) تشير بالحاح وتوجه قارئها إلى ما هو خارجها على العكس من العمل الواقعي الهام الذي سبقها مباشرة وهو **الثلاثية** رغم إحتوائه على القدر الكبير من الخلفية والإهتمامات السياسية والفكرية والدينية المعاصرة.

الحكاية الرمزية ومنطقها النقدي

يفرض شكل الحكاية الرمزية في صوره الواضحة والنمطية منطقاً معيناً على كل من الكاتب والناقد الذي يتصدى بالتحليل لهذا النوع الأدبي أو القصصي. وأبرز ملامح هذا المنطق النظر إلى شخصيات وأحداث وحبكة الحكاية الرمزية بل وبعض دقائقها كأسماء الأشخاص والأمكنة والصور المتكررة الملحة على أنها إشارات إلى معادلات لها تقع خارج العمل أو مفردات للغة تكمن مسمياتها في ما وراء النص. ويتركز الإنتباه والإنشغال في مثل هذه الأعمال على عملية الترميز من جانب الكاتب وفك الترميز من ناحية الناقد للتوصل إلى الرسالة أو العبرة أو التصور الحقيقي الذي أراد الكاتب طرحه وتوصيله واختار لذلك لغة السرد القصصي ربما لما تحتويه من عناصر الجذب والتشويق

لقراء قد ينفرون من الرسالة مجردة وصعبة الهضم أو منفرة المحتوى، وربما لما يوفره هذا السرد من عوامل التخفي والتقنع، إن خيف من جرأة أو تطاول الرسالة. وعلى أي حال، فمع التركيز على عملية الترميز وفكها وتتبع سلسلة المعادلات للوصول إلى صيغة ما، يترك الجانب الذي أصطلح على تسميته بالأدبي البحت من أسلوب وصياغة شخصيات ورسم حبكة أو هيكل يسند السرد وما شابهه ليصبح مجرد ناقل لفكرة ينتهي دوره عند تمام التوصيل وينفذ القارىء الناجح منه بسرعة إلى المسميات والمرموزات التي أرادها الكاتب، بل إن المؤلف نفسه ينشغل عن تجويد هذا الجانب كعنصر حيوي وعضوي في التعبير عن رؤيته بسبب اهتمامه الجوهري والأولى بعملية الترجمة الدقيقة لرؤيته أيا كانت. ومن الجلي أن هذا المنطق للحكاية الرمزية وإن لم يكن مرفوضاً عند المدارس النقدية الحديثة ولا سيما الشكلية إلا أنه لايقبل فيها وبالذات في جوانب المباشرة والإلحاح على الإشارة إلى المسميات الخارجية - كما هي الحال في **أولاد حارتنا** - على أنه من الفن القصصي الرفيع. وفي هذا مما يشي بأن التقدير والحفاوة المبالغ فيهما لصالح هذه الرواية يتجاوزان الإعتبارات الأدبية التي يفترض أن تغلب عند منح جائزة أدبية وليس فلسفية.

ورواية نجيب محفوظ تقدم لنا نوعاً فرعياً وجديداً في فرعيته من الحكاية الرمزية وإن احتفظت في عموميتها بالطابع النمطي لهذا النوع

الأدبي. فالعناصر الخارجية التي يشير إليها العمل وتؤدي إليها سلسلة المعادلات ليست كما هي العادة معاني أخلاقية أو قيمية مجردة ولا هي عدداً من الشخصيات والأحداث السياسية والإجتماعية المعاصرة يتناولها الكاتب بالتعليق والنقد، كما أن الهدف أو العبرة من وراء أولاد حارتنا ليس هو كما نجده في كثير من الحكايات الرمزية الدفاع عن قيمة أخلاقية وسلوكية من خلال التصوير المجسم للمعاني المجردة بل هي العكس تماماً إذا فهمنا ذلك الهدف على أنه إعلان فشل الأديان ورسالاتها في إصلاح أحوال البشرية وإنهاء إستغلال السادة والحكام.

والمعادل الخارجي لأولاد حارتنا الذي يلفت النظر إليه والذي يبرر إلى حد ما الإستقبال الذي نما حول هذا العمل لايستمد جدته فقط من كونه أليجوريا – مضادة (لاتهدف إلى تدعيم معانٍ أخلاقية دينية بل إلى نسف الأساس الذي تستند إليه هذه المعان) بل أيضاً من مساحة ومدى التصور الذي يطرحه. فهذا المعادل هو التاريخ الديني للبشرية منذ بدء تاريخ الإنسانية بعد خروج آدم من الجنة وإلى العصر الحديث الذي يرى محفوظ أن العلم كإتجاه جامع يحل فيه محل الدين رغم فشل تجربته الأولى على يد الساحر عرفه في الجزء الخامس من الرواية. والمعادل هنا هو تصور نجيب محفوظ نفسه عن هذا التاريخ وليس هو تصور المؤمنين بهذا الخط الديني، وإن كان محفوظ يقدم لنا مزيجاً قلقاً من الإيمان بالخط الديني والتشكك فيه وفي نتائجه في نفس

الوقت. وأبلغ دليل على هذا هو شخصية الجبلاوي صاحب البيت الكبير الذي يرمز للإله فهو موجود ثم هو يموت.. وهو يموت راضياً عن ممثل العلم الذي تسبب بصورة غير مباشرة في موته. بل إن عرفه – العلم – يجعل من بين أحلامه وطموحاته إعادة إحياء الجبلاوي بعد موته وكأن العلم لايستطيع أن يستغني عن عقيدة غيبية حتى وإن خلقها خلقاً بعد أن قتل العقائد القديمة أي فضح طابعها الخرافي وفق تصور محفوظ.

ولتوضيح هذاالمدى البالغ الإتساع الذي إختاره نجيب محفوظ ليرمز إليه مضغوطاً في حجم رواية واحدة تكفي الإشارة إلى أنه في العمل السابق مباشرة **(الثلاثية)** عالج نفس الرؤية – فشل الدين ووراثة العلم له – بأسلوب مختلف تماماً وذلك من خلال شخصية كمال في روايتي **قصر الشوق ثم السكرية**. لكن كمال لم يكن نتاج حكاية رمزية حتى وهو يرمز في بعض أبعاده إلي المثقف الليبرالي المتغرب والواصل بالعلمانية إلى الإلحاد، فهو شخصية في عمل واقعي يختفي هيكله البنائي وراء لحم ودم التفاصيل والنسيج السردي والشخصيات الممتلئة المتطورة والخلفيات السياسية والإجتماعية والفكرية الثرية، كمال كان جزءاً من صورة شاملة تعكس رؤية نجيب محفوظ وتصوره لواقع معاصر ولهذا لم تكن عناصر الصدمة والرفض للخط الديني للإنسانية ظاهرة كما هي في تجريد وهيكلية **أولاد حارتنا** العارية من الخلفيات والنسيج وتطوير الشخصيات إلى حد يمكن معه وصفها برواية أو

حكاية الحد الأدني إذا قورنت بالثلاثية مثلاً أو ما سبقها من روايات واقعية. إلا أنه تجب الإشارة هنا إلى أن ميل محفوظ إلى الحكاية الرمزية قد اتضح في **السكرية**. الجزء الثالث من **الثلاثية**، حيث يتوارى ثراء التفاصيل وتركب الشخصيات وكم الوصف لخلفيات الأحداث ليبرز من ورائها هيكل لحدوتة أو وصف رمزي للوضع السياسي في مصر الأربعينيات وفق النظرة العلمانية التي ينتمي إليها محفوظ كإبن للعصر الليبرالي ثم كمعتنق طيع لأفكار العصور التي تلته.

ولا ريب أن تحول محفوظ في تلك المرحلة إلى النمط المجرد من الفن القصصي الممثل بالحكاية الرمزية يعكس اهتماماً غالباً بالأفكار في حد ذاتها دون أن تكون مخالطة لكيان تجربة ذاتية وجماعية خصبة تتيح معالجتها في إطار عمل واقعي ممتليء ومتكامل النواحي الفنية، ولهذا فإن كمال - الملحد المنبثق من تجربة ذاتية على ما يبدو ومن تجربة الفئة العلمانية المتغربة - هو عنصر شاذ ومنعزل في بيئة متدينة رغم تصويره الواقعي المتقن بينما يعاني التصور الشامل لرفض التاريخ الديني في **أولاد حارتنا** من فقر في التفاصيل والخلفيات ومن ضمور ناجم عن الأنشغال المتسلط بتحويل كل واقعة دينية في حياة الأنبياء الأربعة عليهم السلام إلى حادثة في حياة الحارة والأبطال الذين يمثلون هؤلاء الأنبياء وأيضاً عرفه ممثل العلم. وهذا الضمور والفقر في الجسد القصصي هو الضريبة التي يدفعها نجيب محفوظ لمنطق الحكاية

الرمزية.

يحتم منطق الصورة النمطية من الحكاية الرمزية أن تتحول أولاد حارتنا إلى مقال صحفي يسرد بدون حجة أو دليل التصور العلماني عن الدين والعلم الذي ساد الدوائر المتغربة في مطلع القرن الحالي والذي لم يكن له من مجال أمام نهضة الإيمان الإسلامي وقوة العقيدة والرأي الديني إزاء ضياع الغرور الذي إتسم به علم القرن التاسع عشر، ولعل هذا الشعور بإنهزام التصور العلماني الساذج هو الذي أدى بنجيب محفوظ إلى اتخاذ الشكل التنكري للتعبير عن أفكار وإتجاهات أعلن هو بنفسه فشلها وإنتماءها إلى حقب غابرة في شخصية كمال المتقوقعة والمنتمية إلى ليبرالية منهزمة أمام العقائد الجديدة حسب رأيه وهي الإسلام والشيوعية. فكيف يعود محفوظ إلى طرح نفس التصور الذي أعلن نهايته في كمال من خلال حكاية رمزية أقل وقعاً وفنية من قصة كمالٍ في الثلاثية؟ هل هي خطوة بإتجاه العهد الجديد لكي لايقال أن محفوظ لم يبدع لخمس سنوات أو أكثر في ظله أم هي خطوة بإتجاه الورثة الشيوعيين لكمال – الليبرالية في تلك الفترة والذين سيطروا أو كانوا بسبيلهم إلى السيطرة على الساحة الثقافية برعاية السلطة وكانوا يبشرون بنفس المباديء العلمانية الإلحادية لإخراج الدين (الإسلام) من ساحة الإعتبار تمهيداً لملأ الفراغ بالشيوعية أو الماركسية تماماً كما حرص محفوظ على إثباته من خلال

شخصية حنش شقيق عرفة الذي سيرث سحر أخيه ولكن مع تصميم وأمل في النجاح حيث فشل عرفه بسبب إلتصاقه بالسلطة. ومن الطريف أو المفيد أن عرفه العلماني الفاشل قد ترك وصمة من الفشل على حنش الشيوعي المأمول الذي فشل هو الآخر في العقد الذي تلي كتابة أولاد حارتنا ولنفس السبب أي وضع الذات في خدمة السلطة المستبدة (ناظر الوقف – العهد الناصري).

وإذا كان منطق الحكاية الرمزية قد فرض على محفوظ الإلتفات بالكامل تقريباً إلى عملية ترجمة مفردات التصور الواسع المدى للتاريخ الديني للبشرية على حساب أي عناية برسم الشخصيات أو ملء خلفيات الأحداث وتوظيف عناصر الوصف وتدبير الحبكة الفنية فإن منطق الغرض الذي دفعه إلى كتابة أولاد حارتنا كما يستشف منها – أي منطق المقال المترجم إلى مصطلحات ومفردات من لغة الرواية – قد فرض بدوره اللجوء إلى الحكاية الرمزية كالأداة الوحيدة للتعبير عنه. وتبقي بعد ذلك لغة الترجمة كعلامة مميزة لهذا العمل، فنجيب محفوظ إستعان بالمفردات التي يعرفها والتي اتقنها خلال أعماله الروائية السابقة: الحارة، السيد المحترم الثري (الجبلاوي، ناظر الوقف)، الفتوات، المرأة العجوز واللعوب والزوجة، الشاب الوسيم الفتي (أدهم، جبل، رفاعة، قاسم)، الباعة المتجولون، غرز الحشيش والمقاهي، عازف الربابة، ثم اللمسات التصويرية السريعة للمناظر الخارجية وأحوال

المساء في شتى الفصول والأوقات وإدارة الحوار. هذه المفردات الفنية للغة الروائية والتي جربها محفوظ في مجموعة رواياته التاريخية المبكرة ثم نضجت في المجموعة الواقعية تستخدم هنا في أولاد حارتنا لا كعناصر فنية متكاملة عضوية البناء والوظيفة بل كمجرد مقابلات ومعادلات أو مرادفات لعناصر التصور الفكري الذي يرمز له هذا العمل، وهي تخدم بعد ذلك دوراً ثانوياً لإضفاء مسحة من الواقعية أو الإيهام على الأحداث وتعطيها القدر المطلوب من التجسد والقدرة على إشغال خيال القارىء وإقناعه.

مأزق الحكاية الرمزيـــــة

المشكلة الرئيسية التي تواجه **أولاد حارتنا** وتؤثر على عملية الترميز التي سعى إليها محفوظ بل وتولد الكثير من الجدل الذي أحاط بها هي مشكلة عدم التكافؤ الكبير بين مساحة ومدى وأهمية التصور الفكري المرموز وبين مجمل الرموز المجمعة في الرواية (إذا أسميناها كذلك تجاوزاً) والموظفة للدلالة عليه. هنالك تصغير شديد وإنزال في الأهمية وضغط في الزمان والمكان يخلق أثراً أقرب إلى السخرية المستهزئة مما يوحي عند الكثيرين بحق - وقد أوحى بالفعل - أن محفوظ لايكتفي

بإجراء معادلة موضوعية لتصور ناقد للخط الديني للبشرية بل يذهب إلى حد الإستهزاء والتحقير اللذين يعبر عنهما من خلال ما أسميه بعدم التكافؤ الرمزي.

وكل مفردات اللغة الرمزية في أولاد حارتنا تشير إلى عدم التكافؤ هذا وتؤدي إلي الأثر السيء الناجم عنه فنياً. كيان الإله يتحول إلى كيان بشري - الجبلاوي - الذي يجاهد لخلق ضيعة آمنة ووقف في مكان خيالي أسفل المقطم ثم يدير ظهره له تاركاً مهمة إفساده لنظار الوقف ومهمة إصلاحه لنفر من الأبطال يرسل لهم بالمهمة المطلوبة لكنه يتخلى عنهم في اللحظات الحاسمة ثم يموت بعد عمر طويل جداً لاتحدده الرواية وإن كان لايقل عن قرنين أو أكثر وذلك بعد إصابته بنوبة قلبية عندما يقتل عرفه خادمه الأمين. الجبلاوي إذن بشر مهما كانت قوته ونحن في الحقيقة لانرى هذه القوة في العمل ولا نسمع عنها سوى القليل. ومن هنا فموت الجبلاوي هو أمر طبيعي ومتوقع بماأنه بشر ولايمكن تصويره بصورة مقنعة على أنه موت الإله الذي هو عند المؤمنين به ذو كيان مختلف تماماً وخلوده أصل جوهري في تعريفه. وبالمثل فتخلى الجبلاوي عن وقفه وأبناء حارته أو أبنائه وأحفاده يمكن تصويره كنوع من القسوة والخيانة غير المبررة، أما غياب الوجود الجسدي للإله عن مسرح التاريخ البشري فلا يكافيء أو يعادل غياب الجبلاوي وتخليه لأن الإله عند الأديان المنزلة (أو على الأقل الإسلام)

ليس له وجود جسدي بالمعنى المألوف وهو بالتالي ليس غائباً كما أن التصور الديني للتاريخ البشري كمحل للإبتلاء والإختبار وإطلاق القوى الكامنة في البشر تمهيداً للحياة الحقيقية في الآخرة وهي مناط الإهتمام الأساسي في الدين يستبعد إتهام الإله بالتخلي لعدم حضوره الجسدي بل على العكس يفسر ويبرر عدم الحضور، وفوق هذا فإن الإله في التصور الديني فاعل بدون حضور جسدي وعادل في قدره برغم كثرة الآلام والمصائب والمحن أو تفشي الشرور في الدنيا وهي أمور لها تفسيرها المقنع في التصور الديني الذي يركز الكمال في الآخرة وحدها.

وعدم التكافؤ الرمزي الذي أعنيه يختزل الكون في حارة والدنيا في وقف والسلطة الحاكمة والكهنوت في ناظر الوقف والبطش ثم القوى الإقطاعية (في جزء عرفة من العمل) في الفتوات، والأنبياء في نفر من الشباب المتحمس الذين هم مع ذلك يشربون الخمر ويدخنون الحشيش،ومعارك الأديان في خناقات بالشوم والطوب ومعجزاتهم في سحر الحواة وملعبي الثعابين (البلقيطي- شعيب) وحفرة مليئة بالطين يحفرها جبل - موسى عليه السلام - لفتوات الحارة في دورهم كجند فرعون. وأهل الحارة وخططها هم البشر بجهلهم وقذارتهم وجبنهم ونسيانهم المتكرر لعبرة تضحيات وانتصارات الأنبياء الأبطال على الشر. والهدف الوحيد الذي يسعى إليه هؤلاء الأبطال المتواضعون هو

مجرد إسعاد أهل الحارة وإنقاذهم من بطش الفتوات دون الإشارة إلى جوهر الرسالات الدينية وهو التوحيد والتعريف بوجود الله وعبادته وامتثال تعاليمه.

ولست أهدف من وراء هذه الملاحظة إلى تسفيه إختيار الحارة وأهلها كرموز على الإطلاق وإنما أشير إلى أنها رموز غير كافية أو كفئة أو معادلة لما يدور في ذهن محفوظ من تصور واسع حول الخط الديني للبشرية أياً كان رأيه فيه. وهذا التصغير في لغة الترميز هو الذي أدى إلى إتهامه بالتحقير والإستهزاء للأنبياء ورسالاتهم وفجرّ الكثيرمن الجدل ولفت النظر إلى العمل أكثرمما لفت النظر إليه تلميحه بفشل الرسالات الدينية كلها في تحقيق العدل والسعادة للبشرية، وكما أسلفت القول فإن اختيار محفوظ للمجمع الرمزي المتصل بالحارة قد جاء كما يبدو لي بسبب سابق تجاربه في هذا النوع من المفردات القصصية التعبيرية، لكن القصة لاتقف عند هذا الحد إذ يبقي السؤال حول اختيار الحارة وكوكبة العناصر المحيطة بها معلقاً. فهل أراد محفوظ إضفاء أية تلميحات معاصرة أو محلية (مصرية) على تصوره حول التجربة البشرية؟

من الواضح أن أي دفاع أو تبرير عن حشر وضغط التاريخ الديني للبشرية وما بعده في وقائع وشخوص حارة ووقف الجبلاوي لابد أن يعتمد على القول بأن لهذا الإختيار علاقة بالواقع المعاصر لبيئة معينة

ولذلك اتجه إليه محفوظ. ولكن القراءة - حتى السريعة - للرواية تشير إلى أن الحارة معزولة تماماً عن سائر البيئة مكاناً وزماناً وفكراً، قد توجد إشارات إلى أسماء أحياء أخرى - الجمالية، بيت القاضي، الدرّاسة - لكن لا أحداث تقع فيها وهي مذكورة كجزء من عملية الإيهام الواقعي. وزمن الأحداث غير معروف ويمكن أن يمتد من العصر العثماني إلى مطلع القرن العشرين. وهنا لاإحتلال أجبني أو إضطرابات سياسية أو جهاز راديو يأخذ مكان الراوي وعازف الربابة ولا قوى خارجية (أقصد من خارج الحارة) ولا أي دليل على أنه يوجد خارجها أحد سوى الأسماء السابقة وسوى جبل المقطم نفسه أو المكان الوهمي المسمى سوق المقطم الذي يعد امتداداً للحارة ويؤدي أدواراً متعددة كمهجر الأبطال - الأنبياء المتتابعين. وهذا الوضع يتناقض تماماً عما يحدث في مجموعة الروايات الواقعية.

حارة الجبلاوي معزولة تماماً عما هو خارجها ولا يوجد بعد سياسي إجتماعي معاصر. فالسلطة الوحيدة في الحارة (ناظر الوقف والفتوات) هي من داخلها تماماً كالسلطة الروحية (تأثير سمعة الجبلاوي ووصاياه أو شروط الوقف العشرة) أو كالإنتفاضات الرسالية أو الفساد المتفشي. الوحيد الذي يأتي من الخارج هو عرفه - العلم - لكنه أيضاً له جذور في الحارة. أما الإشارات الدالة على الطابع المحلي فهي عديدة: باعة البطاطا والبلح، وجبة الفول المدمس والبصل الأخضر،

الفجل والليمون المخلل، المقاهي وما تقدمه من مشروبات، غرز الحشيش، السحر والأحجبة، بعض العادات والتقاليد وغيرها. لكن دور هذه العناصر في أولاد حارتنا هو دور زخرفي أكثر منه وظيفي. إنها لاتفيد أي عنصر معاصرة للفكر الموجود وراء الرواية بل وضعت فقط لإخفاء طابع الإيهام الروائي الواقعي فلا بد للحكاية الرمزية من جسد يركز إهتمام القاريء ويكون نقطة مرور للمحتوى الفكري المشار إليه من خلالها.

إن عزلة حارة الجبلاوي وإكتفائها وتكاملها الذاتي تحول دون أن تكون للرواية أو بالأصح للرؤية والتصور الكامنين وراءها أبعاد معاصرة أو أن يكون محفوظ قد حاول مثلاً أن يشير إلى أن تاريخ التجربة البشرية مع الدين يتكرر بتنويعات في العصر الحاضر وفي بيئات محددة (هنا بيئة الحارة المصرية). ولا شك أن هذا البتر يضيف إلى عنصر الإفقار والتعرية من العمق الذي تعاني منه **أولاد حارتنا.** فالكاتب لايستفيد من الحكاية الرمزية ليوحي بأن تاريخ البشرية الأوسع يتكرر أو ينعكس بشكل أو بآخر في بيئة معينة وزمان بذاته وهو لايستغل هذه الرمزية لربط العمل بأبعاد سياسية وإجتماعيا معاصرة كما كان يحدث في بعض الروايات الواقعية. نحن فقط في أولاد حارتنا نواجه حكاية رمزية مجردة ومبتورة حيث تقف مفردات وعناصر روائية محسوبة ومرسومة لتشير إلى معادلات خارجية هي ذلك

التصور الذي نتحدث عنه. ومن المفارقة أن مثل هذا العمل الذي يتعمد البعد عن الرؤية السياسية الإجتماعية المعاصرة والواقعية هو الذي أثار كل هذه الضجة السياسية الفكرية حوله بما فصلناه في قسم سابق من هذا البحث.

الحارة إذن ومجمع الرموز حولها إختيرت لا لسبب سوى تقديم لغة المفردات والعناصر المؤدية إلى معنى خارجي والتي هي من ضرورات شكل الحكاية الرمزية وهذا يعني أن نجيب محفوظ قد لجأ إلى أبسط أشكال هذا الفن وأكثرها تجريداً لتوصيل فكرته مما يوحي بغلبة الإعتبار الفكري هنا لا الأدبي أو الفني ويلقي بظلال من الشك حول القيمة الأدبية لهذا العمل وحول التركيز الإعلامي عليه وجعله السبب لمنح جائزة نوبل. إن الإهتمام الحقيقي المحيط بالرواية كما سبق أن أوضحت ينصب على كونها معبرة عن فكرة معينة لاقت هَوى عند تيار فكري معين فسارع بالإلحاح عليها لمحاربة خصومه بها.

ومع بقاء مجمع رموز حارة الجبلاوي في هذا الوضع المنعزل والمجرد تتضح أكثر تلك الخاصية التي أشرت إليها تحت إسم عدم التكافؤ بين الرمز والمرموز إليه حيث تقف هذه المفردات دون إمتلاء بأبعاد متعددة إجتماعية أو سياسية ودون إستدارة وتعمق فني اللهم إلا على سبيل إضفاء لمسات واقعية هنا وهناك من خلال بعض الوصف والحوار والدعابة والقفشات، تقف هذه الشخوص والوقائع والعناصر كمجرد

حوامل لمحتوى رمزي ثقيل جداً تنوء به إلى حد أنها تهبط به إلى الأسفل وتنم عن إتجاه الكاتب نحوه – أي نحو التاريخ الديني للبشرية – ليس فقط بالتشكك والرفض ولكن بالتبرم والسوداوية والإحتقار والإستهزاء في مواضع عدة. فكيف يكافيء الجبلاوي الإله حتى يعبر عن حجم مفهوم هذا الإله سواء عند المؤمنين به أو عند المنكرين لفكرته وكيف يتسنى لتجارب الأديان الأخرى وما حفلت به من أبعاد وأعماق ثرية أن تختزل في مساحة ضئيلة لتصبح خناقات بين الفتوات وخصومهم حول السيطرة على الحارة؟ التفسير الوحيد المقبول الذي تقبل تحته هذه المعادلات غير المتكافئة هو التعجل في كتابه حكاية رمزية من نوع نمطى أو وجود إتجاه محقر للتجربة البشرية كلها وليس للدين فقط لأن معالجة عرفة (العلم) تعاني بشدة هي الأخرى من هذا التصغير وعدم التناسب بين الرمز وما يشير إليه.

التصور وراء أولاد حارتنا

التصور المطروح من خلال الحكاية الرمزية **أولاد حارتنا** هو مناط الإهتمام الأول عند الكاتب وهو بالتالي محور إنتباه القاريء مروراً من مشاهد الحكاية ذاتها وقد ألح أنصار الرواية قبل خصومها أن هذا

التصور ينحصر في ما وصف بفكرة موت الإله الذي يرمز له الجبلاوي. ووجدنا هذا التصور معروضاً على غلاف الترجمة الإنجليزية للعمل الصادرة عام ١٩٨١ كما سمعناه على لسان أمين الهيئة المانحة لجائزة نوبل لنجيب محفوظ وهو يسلم الجائزة. ورأينا هذا الفهم موضع احتفال وإصرار التيار العلماني، وتدل قراءة الرواية على أن هذا الفهم كغيره من التصورات حولها يدل على بعض الحقيقة وليس كلها لأن الرؤية المتضمنة فيها تشتمل على التاريخ الديني للبشرية وما بعده. ولما كانت أولاد حارتنا حكاية رمزية وفق النظرة التي عرضنا لها فإن التعرض لرؤيتها وتصورها أو محتواها المرموز له يصبح من الأمور الأساسية في أي بحث نقدي حولها.

موت الإله المحتفل به بصورة تدعو إلى الدهشة من جانب المتحمسين لهذا العمل يحدث في الجزء الخامس والأخير المخصص لعرفة ذلك الساحر الماهر (والسحر هو رمز العلم هنا) الذي يتسلل إلى البيت الكبير مقر الجبلاوي ليعرف سر قوته والمسطور عنده في الكتاب الخطير المحفوظ في غرفة مغلقة يحرسها خادم عجوز. ويقتل عرفه الخادم وهو على وشك سرقة الكتاب ثم يهرب ليسمع بعد ذلك في مخبأه عن وفاة الجبلاوي متأثراً بصدمة مصرع خادمه خنقاً وإقتحام بيته المصون. ومن المفترض أن تكون هذه الواقعة ترجمة لجزء حيوي في مسار تطور التاريخ الديني للبشرية الذي يبسطه محفوظ في أولاد

حارتنا وهي المرحلة التي يقتل فيها العلم الإله - أو فكرته في أذهان الناس كما أخبر محفوظ مترجم روايته إلى الإنجليزية - باقتحام مجاله (البيت الكبير أو أسرار الملكوت وسنن الطبيعة) ومحاولة الإطلاع على الغيب (الكتاب أو اللوح المحفوظ) وأسراره كهدف أسمى لطموحات هذا الوافد الجديد.

إلا أن الأمور لاتسير بهذا التسطيح ولا تنتهى عند موت الجبلاوي الذي كان يجب أن يختتم القصة لو كانت عبرتها الوحيدة هي موت الإله. فعرفة (ممثل العلم) يتلقي قبل النهاية خبراً يحيطه الغموض بأن الجبلاوي قد مات راضياً عنه فهل ألغي الإله نفسه تاركاً السحر أو العلم ليحل محله؟ وعرفه يضع من بين طموحاته السحرية حلم أو أمل إعادة الحياة إلى الجبلاوي فهل سيكون هذا إلهاً جديداً أم إحياءاً لنفس الإله القديم أو هو رمز إلى أن فكرة الإلوهية والغيبية لن تموت؟ ويؤكد هذا التفسير الأخير تيقن عرفه من أن سجل الوقف أو كتاب الجبلاوي المشهور الذي يحتوى على الحساب وأسرار الوقف والذي يجلب له القوة ما هو إلا كتاب سحر من نفس نوع سحره البدائي وإن كان على درجة أرقى. وفي النهاية فإن عرفه قبل موته يكتب هو الآخر كتاباً يفترض أنه سيحل محل كتاب الجبلاوي الذي لايذكر مرة أخرى. ويضيع كتاب عرفه - العلم - وتبدأ حوله وحول صاحبه الأساطير والأغاني (العقائد والأديان) كما نسجت حول الأبطال السابقين (أدهم،

جبل، رفاعة، قاسم) غير أن هذه الأساطير والأغاني الجديدة التي تطغى على القديمة يقويها وينعشها إحتمال أو وهم عثور حنش (شقيق عرفه) على الكتاب المفقود وهروبه أو غيبته تمهيدا لحشد الأنصار والعودة إلى الحارة مرة أخرى لتخليصها من السيطرة المطلقة لناظر الوقف التي ضمنها له علم عرفه قبل أن ينقلب عليه (ويختفي عدد غير قليل من شباب الحارة في أخر الرواية كما حدث بالنسبة لقاسم (محمد ﷺ) قبل الهجرة وبعدها تمهيداً للإنتصار على الفتوات - صناديد قريش).

وتدل هذه التفاصيل على أن المسألة كما وردت في الجزء الخامس من الرواية ليست مجرد موت الإله ليحل محله العلم وإن كان هذا التصور صحيحاً بصورة عامة تقريبية. فالعلم في حد ذاته يتحول إلى دين وعقيدة لها نفس العناصر التي كانت تحيط بالأديان أو سير الأبطال السابقين: فهناك مشروع إله (إحياء الجبلاوي) وكتاب قوى غامض وشخص غائب يؤمل أن يعود أو يخرج لتحقيق العدل والإنتصار والسعادة وهناك مؤمنون ومنتظرون وأساطير وأناشيد وأغاني تبشر وهناك إنجازات سابقة (القضاء على الفتوات - أمراء الإقطاع من خلال الزجاجات القاتلة - البارود) وقبل كل شيء هناك أمل مستقبلي وهو عنصر انتهى بعد موت الجبلاوي أو تكرار هزائم النظم التي أرساها الأنبياء - الأبطال.

العلم يحل محل الجبلاوي ولكن ليس كعنصر مختلف أو مضاد بل كإستمرار لنفس الروح الدينية ومظاهرها وإن كان بأمل أقوى ينبع من قرب إنجازات العلم وتأثيرها في النفوس. لكن هذا الحل لايخلو من آثار غيبية ومن أحلام وتوقعات قد لاتتحقق وإنما تتمخض من الخيال والأمل لدي الجماهير (أهل الحارة) التي وجدت سلسلة جديدة من الأبطال والعقائد (عرفه، حنش، كتاب السحر) تنسيها السلسلة القديمة التي عفا عليها الزمن، إن محفوظ ينتقد العلم ممثلاً في رائده عرفه الذي يتسم بالتشكك في وجود الجبلاوي وأبطال الحارة ويكره سماع أناشيدهم وسير بطولتهم تغنى في المقاهي على الربابة ويتجرأ على حرم الجبلاوي أو بيته الكبير وأسراره. إذ أن عرفه الساحر العالم هو الذي يبيع أسرار حرفته لناظر الوقف رمز السلطة المستبدة المطلقة ليستخدمه في القضاء على الفتوات الذين ينازعونه السلطة ويستولون على قسم من ريع الوقف فضلاً عن أموال الإتاوات.

ورغم نوايا عرفه الطيبة ورغبته المعلنة في إسعاد أبناء الحارة بطريقة مؤكدة وتختلف عن طرق السابقين من خلال تعليمهم السحر (العلم) إلا أنه يقع في الخطأ التاريخي للعلم كأداة في يد السلطة الغاشمة مقابل الإنغماس في متع الحياة. وعرفه الذي لم يكن يذوق الحشيش خلال إنشغاله بالكشف السحري يغرق فيه بعد بيع مخترعاته ونفسه لرفعت ناظر الوقف. والحشيش في الرواية هو رمز للذهول والغيبوبة وليس فقط

للمتعة. وهذه التجربة مع الممثل الأول للعلم ورائده لاتبشر بخير كبير للتجربة المنتظرة والمأمولة مع خليفته وشقيقه حنش (الشيوعية؟) هذا إذا كان حنش قد عثر على الكتاب السحري بالفعل. ولا ينسى القاريء أن الحارة مصابة بداء النسيان وأن الإستبداد فيها أصيل والجبن والغفلة متوطنان وأن تجارب الأبطال السابقين قد فشلت رغم قوتها وتعدد جوانبها.

إذن فالرؤية المتكاملة للرواية لاتتحدث عن موت الإله وتصل إليه كنهاية تقف بعدها كما يذهب المروجون لها، بل هناك جانب أخر تكميلي يتعلق بمسار تاريخ البشرية عقب موت الدين وظهور دين آخر. ويلاحظ القاريء أن محفوظ يكتب هذا الجزء من وجهة نظر غربية عن العلم ودوره. فالعلم كإتجاه فكري فلسفي - قبل أن يكون نشاطاً بحثياً ذهنياً - هو الذي قتل فكرة الإله في الغرب من خلال توجيه النقد القاتل والداحض للكتب المقدسة الموجودة في أيدي الغربيين ثم من خلال إتخاذ الفكر المادي الإغريقي القديم كهيكل وإطار فلسفي حاكم للنشاط البحثي التقني الذي عرف بإسم العلم. إن الإله الذي مات في الحقيقة - إن كانت قد حدثت وفيات وخسائر في الأرواح على المستوي الكوني - هو التصور الغربي المسيحي التجسيدي عن الإله الذي لم يصمد أمام سحر عرفه لأن كتابه السري السحري قد اندحض أمام كتاب عرفه - الأكثر دقة وأمام سحر المذهب المادي القديم المعاد إحياؤه أما التصور

الإلهي في الإسلام المعتمد على كتاب لم يهتز بالنقد والتمحيص والمتخذ من العلم كنشاط بحث عقلي دليلاً مسانداً له فلم يصب بالموت عندما إقتحم عرفه الغربي عليه البيت (حركة الإستعمار!).

التاريخ الديني للبشرية وما بعده الذي يتصدى له نجيب محفوظ في أولاد حارتنا هو تاريخ أبناء الجبلاوي الغربي أو الخواجة الذي يقتله عرفه ثم يمضي بعد ذلك للقضاء على الإقطاع بالبارود ويضع نفسه تحت أمرة القوى المستبدة للرأسمالية والبورجوازية الصاعدة إلى أن يقتل ليحل محله أمل جديد في مستقبل جديد تحت ظل علم أفضل وأكمل وأكثر رقياً وضع هو أسسه في كتابه السحري. هذا الجزء الذي لايشير إليه أحد من الذين تعرضوا للرواية مركزين بفرح على (موت الإله) ليحاربوا به الإسلام في ظنهم يوضح أن الحارة الحقيقية هنا لاتقع أسفل المقطم بل أسفل جبال الألب وأن الجبلاوي ليس مصرياً أو مسلماً. ويفسر لنا هذا الأمر الطابع الفقير والمجرد والمبتسر للرمزية في هذه الرواية كما يفسر لنا الإلحاح في بعض الأحيان على جلب تفاصيل من البيئة المصرية وطلاء الهيكل العظمى البارز للأحداث بها تغطية وتمويها له عن أن ينم عن التصور الغربي أو التناول للتاريخ الديني للغرب الذي يطل من ورائه.

موت الإله الذي يدور عنه الحديث إذن كعبرة ومغزى رواية أولاد حارتنا هو موت الإله الغربي أو التصور المسيحي عن الإله ومعركة العلم

ضد هذا الإله كما يصورها الجزء الخاص بعرفة لم تقع في حارة مصرية أو وقف يقبع تحت جبل المقطم القاهري وتاريخ عرفة مع ناظر الوقف والفتوات هو تاريخ العلم مع أوروبا الإقطاعية والملكية ثم الرأسمالية. ومما يلفت النظر أن أحداً لم يعلق على هذا البعد لفكرة موت الإله ربما لأن الدعاة لهذه الفكرة يريدون أن ينشروها في وسط إسلامي ولا يريدون «لضحاياهم» المستهدفين أن يدركوا بعدها الغربي الخاص لاسيما في وقت تنبعث فيه نهضة روحية في الغرب تسعى إلى إحياء الجبلاوي الميت صريع العلم المادي. لكن هذاالجانب يضعف من تصور نجيب محفوظ العام بصورة خطيرة ويهدمه من الأساس. فنحن لسنا أمام رؤية عامة لتاريخ البشرية الديني وما وراءه بل أمام رؤية ذات منظور غربي وهي تتعلق في جزئها الأخير والحاسم بتطورات غربية بحته. وفي هذا الصدد يصبح حشر الجزء المتعلق بقاسم إدخالاً غريباً وحشواً أو مجرد مقالة استشراقية جانبية تريد دمج الإسلام في زمرة المعتقدات الغربية التي لقيت مصرعها على يد عرفه.

ولهذا اكتفي المروجون لفكرة موت الإله بترديدها مجردة ومبتورة من أي سياق في أولاد حارتنا لأن أي تحليل لها سيكشف عن بعدها الغربي المحض وعن وضعها الحقيقي داخل التطورات الحضارية والفكرية الغربية ومعها قصة عرفة وتوقعات حنش، وسنجد أن الحقيقة أخطر من مجرد (موت الإله) الساذج الذي لايستدعي كل هذاالفرح

وإعطاء الجوائز الثمينة. ذلك أن ما يقدم لنا حقيقة وعلى ظن أنه رؤية للتطور الديني للبشرية جمعاء ومَصيرها ممثلاً بأهل حارة الجبلاوي ليس سوى إعلان لإنتهاء دور سلسلة دينية نابعة من المنطقة والإحتفال ببدء سلسلة جديدة من الأديان والعقائد أيضاً المفروضة من الغرب. ومن هنا نفهم ونفسر مجيء عرفه (العلم) ومعه شقيقه حنش (المشروع العلماني الأوسع) من خارج الحارة وعدم معرفة والدهما. إنها ليست قضية موت إله أو عقيدة دينية على يد العلم، بل هي عقيدة دينية غيبية أخرى متغربة ومفروضة من الإستعمار تحل محل العقائد الموجودة. وهذه العقيدة الجديدة كما أسلفت ليست هي العلم كنشاط بحثي ذهني تجريبي بل العلم كفلسفة مادية غيبية مطلقة وكرؤية علمانية وجودية شاملة تعتنق بحماس الأديان وتحيط بها نفس الأساطير (الأناشيد والأغاني والمستقبل الموعود والغائب المنتظر بالفروس) التي أحاطت بالأديان في الرواية.

ما يحدث في **أولاد حارتنا** ليس تصوراً أو رؤية ولو من منطلق علمانى للتاريخ الديني للبشرية وأعقابه بل هو تبرير أيديولوجي وإحتفال وتكريس للإستعمار الغربي ونتائجه ممثلة في إعلان موت وإنتهاء الأديان ولا سيما الإسلام لتحل محلها الأديان الغربية الجديدة وهي مذاهب العلمانية. لاإفاقة هناك من غفلة وذهول الحشيش وإدمان الأساطير وتكرر النسيان والخيبة بل هي أديان جديدة غربية تحل محل

الأديان الموجودة في حارة الجبلاوي.

لكن معالجة نجيب محفوظ لهذا الجزء المهم من الرواية – (عرفة) – تحتوي في نفس الوقت على عناصر وتفصيلات وإيحاءات يمكن تفسيرها كما سبق على أنها تشير إلي الفشل المحتمل للسلسلة الدينية الجديدة التي أسسها عرفة وقد يواصلها حنش. وفي ظل هذا التفسير فإن رؤية محفوظ الكلية في أولاد حارتنا تصبح ذات بعدين أولهما وأظهرهما – وهو الذي تخطفته أبواق الدعاية العلمانية – هو التبشير الساذج بموت الإله – الجبلاوي وحلول العلم – السحر محل الدين كفلسفة ورؤية حياة، أما الثاني فهو ينفذ إلى التشابه العقيدي القائم بين الدين التقليدي وبين العلم ويرى في كلٍ أسطورة غيبية مع فارق أن الدين قديم والعلم وافد جديد سيكون له امتداد أو تاريخ في المستقبل. لكن كلاهما موضوع في إطار رؤية تشاؤمية لطباع البشر (أهل الحارة) تنظر إليهما بسوداوية تغيب عن البعد الأول الذي طرح المضمون الدعائي الأكثر سطحية ربما للإستهلاك المتوقع من قبل التيارات التي كتبت الرواية تقرباً إليها وهي في مواقع النفوذ كي ترى في عرفة وحنش ممثليها وتستلهم من الجزء الأخير فألاً حسناً غيبياً خرافياً لدعوتها (العلمية العقلانية).

بينت أن الدعاية الملحة التي تختزل كل مضمون الحكاية الرمزية أولاد حارتنا في فكرة «موت الإله» ممثلاً بوفاة الجبلاوي تخفي وراءها قسماً كبيراً ومهما من الرؤية كما هي موجودة في الرواية وبالذات في جزئها الخامس والأخير كما تشي عن تسطيح وتبسيط يهدف إلى الدعاية المصادمة للدين ويتعمد لذلك الغرض تجاهل أي تحليل لتفاصيل الرواية وإشاراتها من شأنه أن يهز ويعقد هذه الفكرة المبسطة وينسفها ويضيع آثارها الدعائية المباشرة بل ويحولها إلى الضد ويقلبها على من أطلقوها كما اتضح من القسم السابق عندما يرى القراء دور الجانب الغربي الموصوف بأنه تاريخ البشرية جمعاء ويرى أي إله ذلك الذي أعلنت وفاته وفي أي سياق ينبغي تفسير تاريخ عرفة – العلم – ودوره ومن أي منظور يجيء تصور الأديان وبالذات الإسلام.

ولكن ما زالت هناك الأقسام الأربعة الأخرى من أولاد حارتنا وهي التي تعرض لما يمكن تسميته بسير الأنبياء في الرسالات الثلاث الكبرى بالإضافة إلى سيرة آدم وولديه «همام» و«قدري» وخصمه «إدريس» وزوجته «أميمة» والملمح البارز في هذه الأجزاء من الرواية هو تكلف الجهد من جانب الكاتب لإيجاد وقائع وشخصيات ترمز إلى كل

حادثة وجانب ورد تقريباً في سير هؤلاء الأنبياء. ويتجلى هذا الملمح بشدة في حكاية قاسم حيث يهتم محفوظ باليتم ورعي الماعز هذه المرة والغنم معها والزواج من الأرملة الميسورة وكفالة عمه له ونشوء حسن ابن عمه على الإيمان بمبادئه ووجود صاحبه المخلص «صادق» وزواجه من «أخته» بدرية صغيرة السن ونشوء المعركة الفاصلة في زمن القمر «البدر» فوق الجبل والتي تتحول في بعض جوانبها إلى معركة أحد والخندق، وهناك هجرة قاسم بعد أصحابه إلي الحارة الجديدة في الجبل واستقبالهم بأناشيد يامحني ديل العصفورة!! ثم يوجد البديل الرمزي لفتح مكة بعودة قاسم منتصراً إلى الحارة وتعدد زيجاته التي لاينسى محفوظ أن يذكر الأراء المختلفة الواردة في تفسيراتها من أهل الحارة.. وتتكرر نفس التفاصيل ولكن بصورة أقل كثيراً في حالتي جبل ورفاعة (موسى وعيسى) وإن كان محفوظ يعتني في حالة عيسى بذكر العشاء الأخير وإنه ثمرة زواج كان أبوه خلالها يعمل نجاراً وأنه تزوج من فتاة لعوب كانت تخونه مع فتوة الحارة وأنه لقي مصرعه ضرباً بالشوم بعد أن نطق بإسم جبلاوي قبل موته. وجبل يتعلم السحر والسيطرة على الثعابين على يد البلقيطي ساحر سوق المقطم ويتزوج ابنته ويعود ليكسر شوكة الفتوات – جند فرعون – يحفر خندق لهم يقعون فيه ويغطيهم أهل الحارة بالماء بعد أن يكون استخدم سحر حياته في إثارة الذعر بين الفتوات وناظر الوقف وشيعتهم.

والسؤال الجوهري الذي يثار حول هذا الأسلوب في المعالجة يتصل بذلك الإلحاح الشديد والعناية الدقيقة بتسجيل ما أمكن تسجيله أو الرمز إليه من حياة الأنبياء ولا سيما قاسم. إن الغرض هنا ليس التأكد من أن يدرك القارىء الأشخاص المشار إليهم فقد كانت تكفي بضعة تلميحات لتحقيق هذا الهدف. كما أن الإكثار من هذه التفصيلات التي يتركز عليها إهتمام الكاتب لامحل له في الحكاية الرمزية لأنها ليست تاريخاً ولا سيرة وليست ضرباً من الألغاز يستهدف تجربة ذكاء القارىء في التعرف على الشخصية المرموز إليها. الحكاية الرمزية تهدف إلى الإشارة إلى معان معينة أو تصور ورؤية ولذلك فإن إلحاح محفوظ علي التفاصيل المذكورة لاسيما في حالة قاسم يجعل معنى الحكاية الرمزية يبدو مقتصراً على تسجيل سيرة الأنبياء وبالتحديد قاسم بصورة مصغرة ومحقرة من خلال إطار مفردات ولغة الحارة لأنه لايبدو هناك هدف آخر سوى هذا التسجيل وإعادة حكاية السيرة في لغة وسياق وبيئة من شأنها أن تعبر عن رؤية محفوظ المنتقصة.

وتحدثنا الرواية عن تحول حياة أبطال الحارة بعد وفاتهم إلي أساطير وأناشيد تغنى في المقاهي وعن ضياع إنجازاتهم في العدالة والحرية لصالح المستبدين والمستغلين (ناظر الوقف والفتوات) وينطبق هذا على قاسم الذي ضاعت دعوته بعد تولي صديقه الحكم (أي بعد الخلفاء الراشدين الذين تكرر الرواية أيضاً حكايتهم بالرمز ووفق

تصور محفوظ الخاطيء) لكن هناك جانباً مهماً جداً في حكاية قاسم بالذات يتعمد محفوظ إسقاطه ويبدو غريباً وسط تسجيله المدقق لسائر تفاصيل سيرته كبيرها وصغيرها.

قاسم في أولاد حارتنا ليست له معجزة أو مهارة كسيطرة جبل على الحيات أوتمكن رفاعة من العفاريت وشفاء المرضى أو سحر عرفة أو سجل الجبلاوي. ومن الغريب أن محفوظ الذي يعطى أهمية كبيرة لكتاب الجبلاوي وكتاب عرفة المضاد يغفل ذكر أهم تفصيل في حياة قاسم ألا وهو «كتابه» الذي هو من اللوح المحفوظ أو السجل الذي فشل آدهم ثم عرفه في الوصول إليه. وهذا الإهمال أو التعمد يجافي الواقع الذي أوهم محفوظ قارئه أنه يتتبعه في قصص أبطال الحارة لكنه يخدم غرض الإعلان عن فشل التجربة الدينية في جلب العدل والسعادة للحارة. ذلك لأن كتاب قاسم الثابت والمتواتر والمحفوظ لو تم الإعتراف به لسقط من الإعتبار كتاب عرفه السحري الغامض والمفقود ولثبت أن الجبلاوي لم يتخلى عن أهل الحارة بل ترك لهم مالن يضلوا بعده أبداً إذا تمسكوا به وتبعوه وأبلغهم بما هو مسجل لديه في كتاب الغرفة المغلقة أو بعضاً منه.

كتاب قاسم (القرآن) غير المذكور في «تاريخ البشرية» الديني بصورة تثير الإستغراب والدهشة (محفوظ لم يغفل غيرة زوجة قاسم بدرية ذات الأربعة عشر ربيعاً من زوجته الأولى قمر) هو الكفيل كما

حدث في الواقع بعدم إهدار تجربة وإنجازات قاسم وتحولها إلى مادة للأساطير والذكريات المؤسفة وهوالذي يخلق ويحفظ (وقد فعل) ضمير الأمة ويضع لها بوصلة التصحيح وضبط الإتجاه إن حصلت الإنحرافات، وكتاب قاسم يغني عن سحر عرفة وكتابه، وعن عودة حنش المأمولة لأن موقفه من العلم هو موقف المهيمن المستوعب والمشجع.

إن إغفال كتاب قاسم يكشف عن إنحراف خطير وغير سليم في رؤية محفوظ للتاريخ الديني إذ كان يمكنه ذكره مع إنكاره أو وصفه بالأساطير الضائعة وما أشبه. إلا أن ذلك لم يكن ممكناً في ظل معرفة محفوظ بمتانة وضع هذا الكتاب ولذلك أغفله وأسقطه مستفيداً من ذلك في التلميح بفشل تجربة قاسم مثل تجربتي جبل ورفاعة وفاتحاً بذلك الطريق أمام تمجيد تجربة عرفة بالقول بأنه وحده الذي يمتلك كتاباً, يحل محل كتاب الجبلاوي رامزاً بذلك إلى العلم. والإعتراف بوجود كتاب لقاسم يتضمن الإعتراف له بإمتلاك العلم وينسف بالتالي جوهر رؤية نجيب محفوظ في هذا العمل ويبرر ويؤكد إمكانية إحلال العدل والسعادة بإستلهامه بدل إجترار الأناشيد أو الإستسلام للسلطة المستبدة أو انتظار سحر عرفة وتابعه حنش من الغرب ومعهم المذاهب العلمانية.

وبالمثل فإن بدء الرواية في جزء أدهم يحتوى على خطأ يماثل خطأ

تعمد إسقاط ذكر كتاب قاسم. فالجبلاوي يعلن أنه سيستريح ويترك إدارة الوقف لأدهم (آدم) مما يطلق العنان لأحقاد أخيه الأكبر إدريس (إبليس) ويبدأ سلسلة التجارب البشرية الدينية. فهل كان خلق آدم وإستخلافه في الأرض إعلاناً من الإله بالخلود إلى الراحة والإنسحاب من الكون وفق المفهوم الديني؟ إن محفوظ عندما يلوي هذا المفهوم الحيوي للدين يتلاعب تلاعباً غير أمين برمز الجبالوي ويضفي عليه منذ البداية كممثل للإله صفات سلبية مثل التخلي والإبتعاد واللامبالاة غير واردة في النظرة الدينية. وهكذا ففي بداية الرواية وأخرها نجد إنحرافات عن المفاهيم الدينية وضعت عمداً لتخدم تصور محفوظ الخاص عن الأديان وتجربتها. ومن هذه الإنحرافات التي تتكرر مع كل بطل من أبطال الحارة الإصرار على أن هدفهم الوحيد كان هدفاً دنيوياً هو إحلال السعادة الدائمة والعدل وإحقاق الحق وتوزيع الثروة أو ريع الوقف بالقسطاس على كل المستحقين بدوين تمييز وإنهاء إستغلال الأسياد. ويعتبر محفوظ أن تهاوني هذه الأهداف أو التراجع عنها عند الأجيال اللاحقة عن هؤلاء الأبطال والردة إلى سيطرة ناظر الوقف والفتوات تمثل فشلاً لكل دين من هذه الأديان.

ومن التبسيط أن يختزل هدف الأديان في هذا الهدف الدنيوي البحت. ونسيان الهدف الأساسي وهو التعريف بوجود الإله وتوحيده وعبادته واتباع أوامره وتجنب نواهيه كذلك من التبسيط إغفال إختلاف

الأديان عن بعضها في تحديد أمثال هذه الأهداف الدنيوية ووسائل الوصول إليها. والتسوية بينها وإغفال نتائج التجارب التاريخية يظلم الإسلام مثلاً الذي بقيت دوله وحضارته وتطلعاته لإقامة العدل والحق برغم الفتن والمحن والهجمات الخارجية وسقوط دول إسلامية هنا وهناك، ومن التبسيط والتضليل أيضاً أن يقال من خلال الرمز أن التجربة الإسلامية تحولت إلى مجرد أناشيد وأغاني تنشد على المسطولين. بل أن يقال هذا في زمن صحوة إسلامية أطلت زمن كتابة الرواية ذاتها.

ولا تعتبر هذه الإنتقادات موجهة إلى ما قد يوصف بتفسير محفوظ أونظرته الخاصة لجزئيات دينية فإسقاط وجود «كتاب قاسم» وتحويل خلافة آدم على الأرض إلى الضد مما هو معنى منها لاتعد تفسيرات سواء أكانت مقبولة أم مرفوضة بل هي تلاعبات في التاريخ الديني تتناقض بوضوح مع حرص محفوظ على الدقة في إتباع السير الدينية والوقائع الرسالية في أمور أخرى حتى وإن وضعها في سياق مصغر ومحقر.

وإذا كانت هذه حال أبطال الحارة في الرواية فإن حالة أشرارها لاتختلف كثيراً. وأوضح ما يلاحظ في معالجتهم أنهم رموز مجردة هيكلية كمفردات شفرة تستخدم في قصة كل بطل للدلالة على مضمون مختلف يوائم سيرة ذلك البطل. فناظر الوقف هو فرعون في «جبل»

والقائد الروماني في «رفاعة» وأبو جهل في «قاسم» أو أي من زعماء معسكر الكفر وهو رمز البورجوازية - الرأسمالية الصاعدة في «عرفة» ، أما الفتوات فهم جند فرعون تارة وجند الرومان أخرى وصناديد قريش ثم ممثلوا الإقطاع الأوروبي في جزء «عرفة» الذين تقضي عليهم البورجوازية بإستخدام إختراع البارود (زجاجات عرفة القاتلة) كما حدث في التاريخ الأوروبي.

وهذا التجريد للأشرار من أي مضمون إجتماعي سياسي معاصر أو من تحليل ملموس لطبعية الإستغلال والإستبداد الذي يمارسونه بإستثناء السرقة أو البطش المحض الظاهر بالقوة المسلحة (الشوم) ونهب حسابات الوقف يدعم أسلوب أولاد حارتنا الذي لاحظناه من قبل وهو البعد عن أي ربط بالواقع وتعمق فني في خلق شخصيات حية مع الإقتصار على إيراد مفردات وعناصر بسيطة ترمز لأشياء خارجها، وتنطبق نفس هذه الملاحظة على معالجة محفوظ لعنصري المكان والزمان في الرواية. فالمكان مرسوم بصورة نمطية هندسية بدون تعقيدات واقعية تكسو هيكله البارز. إذ يقع البيت الكبير على رأس الحارة وأمامه عن يمين ويسار تقع قصور أو بيوت ناظر الوقف وزعيم الفتوات كممثلين لسلطة الكهنوت والبطش النابعة من الدين وفق رؤية محفوظ الذي ينسى بالطبع أنه لايوجد كهنوت في الإسلام كما نسي كتاب قاسم (القرآن). وبعد هذه المنازل المهيمنة على الحارة تأتي أحياء

يسكنها آل كل بطل أو المنتسبون إليه وهي أقسام ثلاثة رئيسية.

أما عنصر الزمان فهو الآخر مبهم مجرد ولا يدل عليه مقياس سوى تتابع الأبطال على فترات جيلاً بعد جيل كما لانعرف عمر الجبلاوي هذا فضلاً عن عدم ربط زمن الأحداث بأي عصر خارجي كما سبق القول.وتقوى كل هذه العناصر بأسلوب معالجتها هذا من الطابع المنغلق للعمل وتحفظ له بصرامة شكله المختار كترجمة لفكرة أو تصور معين.

الخلاصـــــة

أولاد حارتنا هي حكاية رمزية تتألف من مفردات وعناصر قصصية بسيطة ومجردة انتزعها نجيب محفوظ من عناصر مشابهة سبق أن طورها وجربها في رواياته الواقعية حيث جرت في سياق أكثر حيوية وامتلاءاً من حيث الخلفيات وتطوير الشخصيات ورسمها وغير ذلك من الأساليب الفنية الروائية. وقد أخذت هذه المفردات والعناصر على عجل وجردت وحولت إلى رموز ومعادلات لتخدم الغرض الأساسي للرواية وهو الإشارة إلى فكر يتصل بالتاريخ الديني للبشرية كما يراه محفوظ. هذا هو المفتاح الفني الحاكم لتفسير هذا العمل والدخول إليه. إنها لغة

من مفردات فاقدة للأبعاد المختلفة لمفردات اللغة العادية وقد انيط بها دور دلالي واحد ومحدد هو الرمز إلى الفكرة. وبهذه المعالجة فإن الرواية تمثل شكلاً بدائياً ونمطياً من الحكاية الرمزية يعاني فوق ذلك من مشكلات خاصة أشرت إليها فيما سبق وأبرزها عدم التكافؤ بين مجموعة المفردات الضيقة المستوى والمدى وبين المجال الزماني والمعنوي الواسع الذي ترمز إليه. ويعبر عدم التكافؤ هذا عن إتجاه نجيب محفوظ إلي المادة التي يعالجها وموقفه منها لاسيما وأن لغة المفردات تخلو من أي تعليق على الواقع المعاصر مما قد يبرر إختيارها هي بالذات. ومن هنا فإن العديد من الإنتقادات التي وجهت للعمل كان لها ما يبررها بقوة من هذا الجانب.

وبالنظر إلى الجانب البدائي الفج لفنية العمل - وهو جانب قد فرضته فكرة العمل ودافعه فرضاً - فإن الإحتفال بالرواية من جانب نفر من الأصوات واللجنة المانحة لجائزة نوبل يمكن تفسيره فقط بالإعجاب بالفكرة أو المحتوى والمضمون الذي تشير إليه الرموز. ولهذه الفكرة هي الأخرى مشكلاتها الخاصة وأوجه التناقض والهزال التي حاولت أن ألفت النظر إليها في الصفحات السابقة.

إن محفوظ لايعالج هنا موقفاً من الدين قد يبدو عند شخصية من الشخصيات داخل رواية واقعية كما عند **كمال** أو **أحمد في الثلاثية** أو **طه في القاهرة الجديدة** أو مثل ما قد نجده في جوانب من الطريق

أو الشحات أو ميرمار فيما بعد.. ففي هذه الحالات تأخذ الرؤية طابعاً ملموساً وتوضع داخل إطار إجتماعي معين وتبرر أو تفلسف بظروف بعينها كما أنها تنضبط وتوضع موضعها بما يحيط بها. أما في أولاد حارتنا وبصورة فريدة فإننانجد تاريخاً من نوع جديد يختلف عما حاوله محفوظ في رواياته التاريخية المشهورة لأنه تاريخ يدعى تصوير مراحل مرت بها البشرية منذ الخليقة وحتى الآن ويلم بجوانب شاسعة في عجالة موجزة.

وبصرف النظر عن هذه الصعوبة في التعبير عن الخضم الشاسع من خلال لغة مفردات محدودة وضيقة وعدم كفاية هذا التعبير فإنه يؤدى في النهاية إلى أثر وإنطباع فكاهي ساخر وكأن العمل ينقلب إلى كاريكاتير مضحك أكثرمنه رمز لتصور محفوظ عن تجربة البشرية أيا كان هذا التصور أو رمز لموت الإله المحتفل به. بل إن هذا الموت نفسه يتحول كما يرد في الرواية إلى أحد عناصر هذه الكوميديا عندما يموت الجبلاوي من (الخضة) ولا ينسى أن يبلغ عرفة (قاتله) عن أنه يموت راضياً عنه، ويمكن مرة أخرى أن يفسر هذا الأثر الفكاهي أو الساخر بأنه تعليق غير مباشر بوعي أو لا وعي من محفوظ. لكنه يدخل الكثير من الأضطراب على الفكرة التي تشير إليها الحكاية الرمزية.

وهذه الفكرة تحظى بنصيب وافر من الإضطراب. فتاريخ البشرية الديني مصاغ بأسلوب يفقده أبرز وأهم عناصره (كتاب قاسم، حقيقة

موقف الإله، الرسالة الأساسية للأنبياء) بما يسهل الطعن فيه أو يمرر وصفه كأناشيد وأساطير. وهذا التاريخ معالج من وجهة نظر متغربة وإستشراقية في جزء قاسم ثم هو يتحول في خفاء إلى أن يكون تاريخ أوروبا في جزء عرفه وليس تاريخ البشرية مما ينهى العمل وقد تحول إلى تبرير وتبشير بالغزو الغربي الفكري للعالم الإسلامي المعاصر وفيه منطقة مهد الأديان. وليست هذه هي كل أوجه الإضطراب. فهل تبشر القصة بموت الإله أم بإحيائه على أسس جديدة أو إحياء إله جديد، وهل توحي بنهاية الدين وبداية العلم أم بنهاية دين وبداية دين آخر هو العلم في ثوب الدين؟ وهل هي تتفاءل بتحرير البشرية أم تعبر عن نظرة متشائمة من تكرار وقوع الإنسانية في الغفلة وبراثن الغيبيات علمية أكانت أم دينية فكلها أساطير وأناشيد وتوقعات مستقبلية؟ ولكن يبدو أنها تطرح وجهاً لكل صاحب بغية يستطيع أن يقدمه خدمة لدعوته وكلها أوجه ضد الدين. إلا أن وجهاً واحداً يغيب عن هذه الرواية وهو إنتقاد السلطة والطغيان القائم ! فلا مستبد يموت أو يهزم وله صلة بالواقع إبان كتابة الرواية. الجبلاوي وناظر الوقف والفتوات هم رموز مجردة تتعلق بالدين وبالتاريخ وليس بالحكم القائم وقت كتابة الرواية والذي كان يمارس الطغيان والإستبداد بطريقته الخاصة التي لم يشأ محفوظ أن يتناولها بالتعليق ولو رمزاً. أوجه الرواية المتعددة تستخدم فقط ضد الدين أو البشرية ولكن ليس أبداً ضد سلاطين العصر والأوان

ولذلك ووجهت باستقبال حافل ومرحب في عودتها إلى الأضواء بعد نسيان دام ثلاثين سنة.

أولاد حارتنا هي مقال مصاغ بلغة قصصية خادعة. فإذا قرأنا القصة أشارت لنا إلى الفكرة من ورائها لكي نغفر ما نجده فيها من ضعف فني وركاكة روائية وإذا فحصنا الفكرة وتبين لنا فيها الإضطراب وعدم الوضوح أو الخطأ وإنعدام الحجة والتبرير أرجعتنا إلى القصة معتذرة بأن العمل رواية فنية أو رؤية لايتشرط فيها التماسك المنطقي والحجة الناضجة المعقولة. فضعف القصة يتداري في الفكر الذي ترمز إليه وضعف الفكر يتدارى في أن العمل قصة في شكله الظاهري وليس بحثاً. لكن هذا الضعف المزدوج انتهى إلى أن يكون حامل فكرة اختزلت إلى ما سمى بموت الإله وأدى إلى أن يكون استقبال الرواية والحديث عنها غريباً فريداً في نوعه، فهو إستقبال لايركز على العمل ذاته لافناً وشكلاً ولا حتى مضموناً بل يركز علي فكرة منزوعة من العمل ومبسطة (موت الإله) لاستخدامها كسلاح في يد العلمانيين لمواجهة الدعوة الدينية والإيمان الإسلامي.

قرار حـــظر

صرح فضيلة الأستاذ الدكتور عبد الفتاح بركة الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية بأن مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف قد أصدر قراره عام ١٩٦٨ القاضي بحظر تداول أو نشر رواية «أولاد حارتنا» التي ألفها الكاتب نجيب محفوظ سواء أكانت مقروءة أو مسموعة أم مرئية.

والأمانة العامة لمجمع البحوث الإسلامية تلفت الأنظار إلى هذا الحظر، وتدعو المسلمين إلى ضرورة الإلتزام به. وبالله التوفيق..

مجلة الأزهر عدد شهر جماد أول سنة ١٤٠٩ هـ

بعض المصادر والمراجع:

أ ـ الكتب العربية:

١ - القرآن الكريم.

٢ - العهد الجديد ـ مطبعة الأميركان ـ بيروت ـ ١٩٠٥.

٣ - سيرة المسيح ـ كنيسة قصر الدوبارة ـ القاهرة ـ ١٩٨٣.

٤ - عباس محمود العقاد ـ الله ـ دار الهلال ـ القاهرة ـ ١٩٥٤.

٥ - عثمان نوية ـ أعلام الفكر الإوروبي من سقراط إلى سارتر ـ الجزء الثاني ـ كتاب الهلال ٣١٤ ـ القاهرة ـ ١٩٧٧.

٦ - نجيب محفوظ ـ أهل الهوى ـ روايات الهلال ـ العدد ٤٧٩ ـ القاهرة ـ ١٩٨٨.

٧ - د. السيد أحمد فرج - جذور العلمانية «الجذور التاريخية للصراع بين العلمانية والإسلامية في مصر منذ البداية وحتى عام ١٩٤٨». دار الوفاء - المنصورة - ١٩٨٥.

٨ - د. عز الدين فراج - نبي الإسلام في مرآة الفكر الغربي - دار الفكر العربي - القاهرة - بدون تاريخ.

٩ - محمد محمود الصواف - زوجات النبي الطاهرات وحكمة تعددهن - دار الإعتصام - القاهرة - ١٩٧٩.

١٠ - عبد الرحن الشرقاوي - محمد رسول الحرية - كتاب الهلال - العدد ١٦٦ - القاهرة- ١٩٦٥.

١١- د. إبراهيم دسوقي أباظة - تقدميون إلى الخلف - (أقرأ) العدد ٤١١ - دار المعارف - القاهرة - ١٩٧٦.

١٢ - إبراهيم عامر وآخرون (محررون) موسوعة الهلال الإشتراكية - دار الهلال - القاهرة ١٩٧٠ -

١٣- فؤاد دوارة - عشرة أدباء يتحدثون - دار الفكر - القاهرة - بدون تاريخ.

الصحف والدوريات:

١- جريدة النور (أسبوعية عن حزب الأحرار) العدد ٣٤٨ - ٢٢ ربيع أول ١٤٠٩ - ٢ نوفمبر ١٩٨٨.

٢- مجلة القاهرة (نصف شهرية) العدد ٩٠ - ١٥ ديسمبر ١٩٨٨.

٣- مجلة الهلال (شهرية) عدد نوفمبر ١٩٨٨.

الكتب الأجنبية:

1- Naguib Mahfouz,, children of Gebelawi, translated by Philip Stewart, Heinemann, London, 1981.

2- Naguib Mahfouz, The Beginning And The End, translated by Ramses Hanna Awad, The American University In Cairo Press, Cairo, 1985.

3- Naguib Mal.fouz, The Beggar, translated by Kristin Walker Henry and Nariman Khales Naili Al-Warraki, The American University In Cairo Press, Cairo, 1986.

4- Naguib Mahfouz, Respected Sir, translated by Rashid El-Enany, The American University In Cairo Press, Cairo, 1987

5- Naguib Mahfouz, Midaq Alley, translated by Trevor Le Gassick, Three Continents Press, Washington D.C. and Heinemann, London, 1980.

محتويات الكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠ ـ ٥٥ ـ ٨٩

هذا الكتاب

لعل رواية «أولاد حارتنا» للكاتب الروائي نجيب محفوظ قد حظيت من الإهتمام العالمي وأثارت من الضجيج ما يندر أن يتعرض له عمل»أدبي آخر..

وقد رأينا من حق القاريء أن نقدم له هذه الدراسة الأدبية والفلسفية والفنية للرواية التي أثارت هذه الضجة بمناسبة حصول الأستاذ نجيب محفوظ على جائزة نوبل في الآداب لعام ١٩٨٨.. مع استعراض لمشوار عطائه الأدبي وما يحمله من دلالات فكرية.

في هذا الكتاب سندخل بالقاريء إلى (حارة) نجيب محفوظ.. لنرى داخلها أبناء الحارة.. ونعرف حقيقة (الجبلاوي).. و «أدهم» .. و«جبل».. و «رفاعة» و «قاسم».. و «عرفه».

ومن خلال التحليل والتعليق سيعرف القاريء أيضاً من هم «الجرابيع».. وما هو «الكتاب السري» ومن هو «حنش».. وماذا ينتظر الكون من مصير.. في رؤية مؤلف الرواية.

أمة برس للطباعة والنشر

٢٤ شارع دجلة ـ متفرع من شهاب ـ المهندسين

الدور الرابع ـ شقة ٩ ـ تليفون : ٧٠٨٥٥٦